مدينة الشياطين

رواية

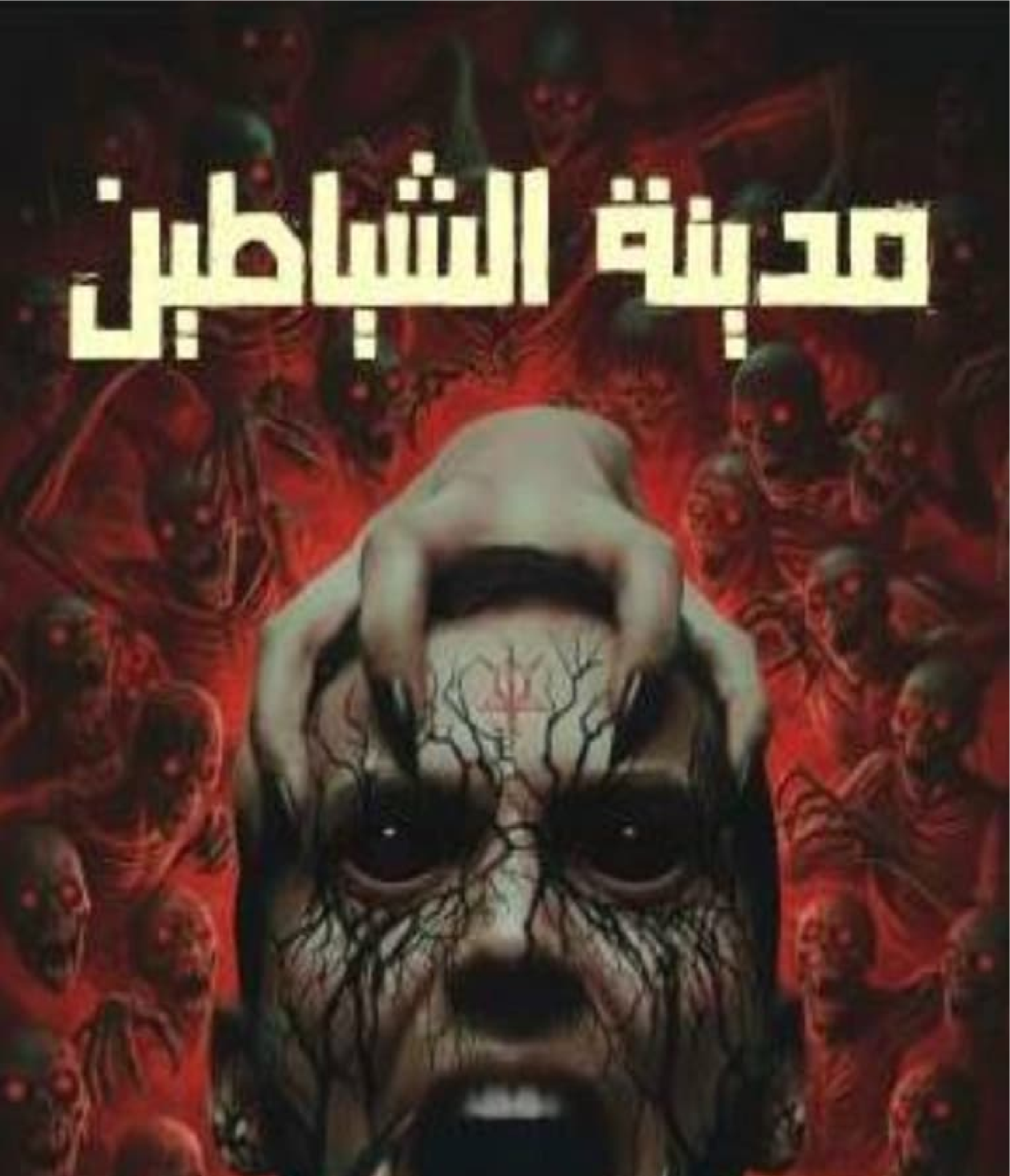

محمود الجعيدى

ساحر الكتب

الكتاب: مدينة الشياطين
المؤلف: محمود الجعيدي
تصميم الغلاف: أحمد و هبة
التدقيق اللغوي: مها سيد عبد المقصود
التنسيق الداخلي: هند محمود كمال
رقم الإيداع: 2025/26910
الترقيم الدولي: 978-977-778-458-0

30 عمارات العبور – طريق صلاح سالم – القاهرة
ت: 01096539633
إيميل: info@noonpublishing.com

جميع حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة للناشر

الفصل الأول
القربان

منتصف الليل

كان المطر قد بدأ يتساقط حين توقف "خليل" أمام منزل الدجال "عزام أبو شمعة" وطرق الباب، وهو يتلفت حول نفسه في توتر وقلق. انتظر قليلًا وأصغى السمع؛ لا حركة من الداخل.. لا صوت، عاد يطرق الباب بقوةٍ أكبر وهو يمسح الماء من على وجهه وينادي:

- شيخ "عزام"؟

ثوانٍ مرت قبل أن يسمع هذه المرة صوت أقدامٍ تقترب، ثم صوت احتكاك قفلٍ ومزلاجٍ؛ فقال بسرعةٍ:

- "عنبر".. افتح الباب.

تحرّك الباب ببطءٍ حركةً صغيرةً ولم يظهر من ورائه سوى عينٍ واسعةٍ راحت تراقبه في حذرٍ، وقالت بخشونةٍ:

- ماذا تريد؟

أجاب "خليل" وهو يحاول أن يخفي الارتجافة التي سَرَت في جسده:

- أريد مقابلة "سيدنا عزام".

حدّقت به العين الواحدة وجحظت قليلًا وبرزت إلى الخارج حتى كادت أن تسقط على الأرض؛ فعاد "خليل" يقول في لهجةٍ أقرب للتوسل:

- الأمر ضروريٌ جدًا يا "عنبر".

تحرّك الباب، ثم ظهر رجلٌ أحدب الظهر، أشار إلى "خليل" بالدخول قائلًا:

- اتبعني.

سار "خليل" خلف "عنبر" في ممرٍ طويلٍ، حتى توقّف أمام بابٍ خشبيٍّ عتيق ودفعه بيده؛ فأصدرت مفصلاته الصدئة صريرًا مخيفًا، ثم قال له:

- أدخل.

في الداخل، كان "عزام" يجلس على مقعدٍ خشبيٍّ عريضٍ أشبه بالعرش، كان رجلًا نحيلًا، حاد الوجه، ذا لحيةٍ سوداء وحاجبين بارزين، أمامه منضدةٌ مستطيلة، فوقها موقدٌ تتصاعد منه رائحة فحمٍ وبخورٍ عتيق، أشار إلى "خليل" قائلًا:

- اجلس.

جلس "خليل" بسرعةٍ كأنّه كان ينتظر ذلك، ثم قال:

- أنا في مشكلةٍ كبيرة.

صاح "عزام":

- أعلم.

ثم استطرد في غضبٍ:

- الإنسان بطبيعته غبيٌّ، لكن هناك مَن يتجاوز حدود الغباء، وأنت مِن هؤلاء يا "خليل"، لقد حذرتُك من شيءٍ واحد فقط.. شيءٍ واحد فقط ومع ذلك أنت عصيتَ.

قال "خليل" محاولًا التملُّص من اللوم:

- صدقني.. لا علاقة لي بالأمر.. زوجتي هي السبب.

غمغم "عزام":

- تختلف الأسباب والنتيجة واحدة.

- تقولها وكأنّك تقول تعددت الأسباب والموت واحد.

- هي نفس الشيء.

هتف "خليل":

- إذن، أنقذني يا مولانا.

نظر إليه "عزام" مليًا قبل أن يقول:

- اسمعني جيدًا يا "خليل"، التعويذة التي استخدمتها هي نوعٌ نادر جدًا من سحر الرصد، تعويذةٌ قوية لا يتقنها سوى قلةٍ قليلة. هذه التعويذة تسيطر على الجن الراصد حارس المقبرة الفرعونية التي عثرتَ عليها، لكن هذا النوع من الجن خبيثٌ وله طلباتٌ محددة، لا مجال لمحاولة خداعه أو التنصُّل من العهد معه.

تلعثم "خليل" قبل أن يسأل:

- والحل يا سيدنا؟

أجاب "عزام" بصوتٍ عميق:

- حارس المقبرة شيطانٌ رجيم اسمه "دميان"، ماجوسي كافر، وإن نقض أحدٌ عهده، فانتقامه يكون شديدًا، وللأسف إرضاؤه مجددًا سيكون في غاية الصعوبة لكن...

- لكن ماذا؟

- لكن لا شيء مستحيل؛ يمكنني المحاولة، لكنها ستكلفك

الكثير.

قال "خليل" بسرعةٍ:

- أنت تعلم أن الأموال لا تمثّل لي أي مشكلةٍ.

- جيد، لكن قبل أن أبدأ أريد منك إجابةً صادقةً؛ هل أنت مستعدّ أن تفعل كل ما أطلبه منك؟

هزّ "خليل" رأسه بقوةٍ دلالةً على الموافقة؛ فابتسم "عزام" ابتسامةً واسعةً أظهرت أسنانه السوداء، وقال:

- أحسنت.

ثم نادى بصوتٍ مرتفع:

- يا "عنبر".

في تلك اللحظة، دخل "عنبر" بسرعةٍ كأنّه كان يقف منتظرًا وراء الباب وقال:

- أمر مولانا.

همس له "عزام" في أذنه ببضع كلماتٍ، وبعدها غادر "عنبر" دون أن ينطق بكلمةٍ واحدة، كاد "خليل" أن يسأل عمّا يجري، لكن "عزام" أشار إليه:

- الصبر.

قال ذلك ثم نهض وخرج هو أيضًا، بينما ظلّ "خليل" جالسًا في مكانه، مرت لحظاتٌ طويلة، أو ربما ساعات لم يعد متأكّدًا من الزمن، لكن شعورًا خانقًا بدأ يتسلل إلى صدره قبل أن يسمع صوتٌ يأتي من الطابق العلوي، صوت ارتطام شيءٍ ثقيل ثم صوت طفلٍ يبكي في رعب!

***

بعد مدةٍ، تحرّك باب الغرفة، ودخل "عنبر" وهو يرتدي جلبابًا أسودَ فضفاضًا، وفي يده جلبابٌ آخر مطويٌ بعناية، مده نحو "خليل" وقال له بصوتٍ خافت:

- "سيدنا عزام" يطلب منك ارتداء هذا.

أخذ "خليل" الجلباب وارتداه فوق ملابسه بسرعةٍ، كان طوله مناسبًا، لكنه بدا فضفاضًا بشكلٍ غريبٍ كأنّ مَن صنعه تعمّد أن يكون واسعًا عن قصدٍ. قال "خليل" وهو يمسك أطراف الجلباب:

- ماذا الآن؟

أخرج "عنبر" مصباحًا يدويًا صغيرًا، وقال له:

- اتبعني.

ثم بدأ في السير ومن ورائه "خليل"، خرج الاثنان من المنزل، وتوغلا بين شوارع المدينة بخطواتٍ سريعة أقرب للهرولة رغم الظلام الكثيف الذي كان يخفي معالم الطريق، قال "خليل" وهو يتلفت حول نفسه في قلقٍ:

- أخشى أن يرانا أحد.

غمغم "عنبر" دون أن يلتفت إليه:

- لا تقلق؛ الأسياد يحفظوننا.

بعد نصف ساعةٍ، وصلا إلى المقابر، وهناك استمرا في السير وسط الطين والوحل حتى توقّف "عنبر" أمام قبرٍ قديمٍ متهالك، إحدى زواياه مكسورة، وبابه الحديدي مفتوحٌ على

مصراعيه مثل فم وحشٍ جائع ينتظر فريسته. قال "خليل" في توتر:

- أين "سيدنا عزام"؟

تجاهل "عنبر" الرد عليه وأشار إلى القبر قائلًا:

- انزلْ هنا.

شعر "خليل" بالخوف وكاد أن يستدير ويهرب من المكان وهو يقول:

- لا.. لا أستطيع.

فجأةً، سمع صوتًا خشنًا يأتي من خلفه:

- لقد اتفقنا أن تفعل كل ما أطلبه منك.

التفت "خليل" إلى الوراء؛ فشاهد "عزام" يقف وهو يرتدي أيضًا جلبابًا أسود، ويمسك في يده فانوسًا قديمًا ينبعث منه ضوءٌ شاحب، وبجواره طفلٌ صغيرٌ لا يتجاوز الخامسة من عمره، ملامحه جامدة تمامًا كأنّه مجرد دُمية حية، رفع "عزام" يده وأشار نحو القبر قائلًا:

- انزلْ يا "خليل".

أدرك "خليل" أنه ليس لديه خيارٌ آخر؛ فهزَّ رأسه في استسلامٍ ثم اقترب بحذرٍ من باب المقبرة، ونظر إلى السُلم الحجريّ الذي يغوص في الظلام، وبدأ في النزول خطوةً تلو الأخرى، حتى وصل إلى القاع؛ وجد نفسه داخل غرفةٍ واسعة، الهواء فيها ثقيلٌ والتنفس صعب، وفي وسط الغرفة نجمةٌ سداسية ضخمة، مرسومة على الأرض بمادةٍ سوداء أشبه بالرماد، وحولها دائرةٌ من الرموز وتعاويذ السحر والجن،

وفي قلب النجمة كان هناك اسمٌ مكتوبٌ بخطٍ داكن.. اسم "دميان"!

عند أطراف النجمة الأربعة، كان يجلس أربعة رجالٍ، يرتدون الجلابيب ذاتها، وقد غطوا رؤوسهم بأقمشةٍ من الكتان فأخفت ملامحهم تمامًا. لم يستطع "خليل" رؤية أعينهم، لكنه كان واثقًا من أنّهم يراقبونه؛ أشار إليه "عزام" بيده، وطلب منه الجلوس في المكان الفارغ عند طرف النجمة الخامس وقال:

- اجلس ولا تتحرّك إلا عندما أقول لك.

جلس "خليل" على ركبتيه مثل الآخرين وهو يقول:

- السمع والطاعة.

ابتسم "عزام" حين سمع ذلك، ثم سأل "خليل":

- ماذا تعرف عن الأطفال الزوهريين؟

أجاب "خليل" بعد تفكيرٍ قصير:

- سمعتُ أنّهم أطفالٌ من الجن.

هزّ "عزام" رأسه نافيًا وقال:

- الطفل الزوهري ليس من الجن، بل هو إنسانٌ عاديٌ، لكنه يتميز بقدراتٍ خاصة، وهذا ما يجعله مطلوبًا بشدةٍ من قبل الجن والشياطين؛ لأنّ دمه يحتوي على الزئبق الأحمر، وهو المفتاح لفك الرصد وكشف الكنوز والمقابر.

ثم أشار إلى الطفل الواقف بجانبه وأضاف قائلًا:

- أقدّم لك واحدًا منهم.

في تلك اللحظة، تحرّك الطفل نحو منتصف النجمة، ثم جلس على ركبتيه أمام "خليل" مباشرةً وأغمض عينيه وأحنى رقبته في خضوعٍ عجيبٍ وقال:

- الآن.

اقترب "عزام" من "خليل" ووضع أمامه سكينًا حادًا، ونظر إليه نظرةً لا تحتمل التأويل؛ كانت رسالةً واضحةً جدًا.. كان يريد منه أن يمسك السكين ويذبح الطفل!

***

أمسك "خليل" السكين وهو يرتجف، بينما جلس "عزام" في مكانه عند الطرف الأخير من النجمة، وأخرج من جيبه شمعةً أشعلها ببطءٍ، وناولها للرجل الجالس إلى يساره والذي أخذها منه بصمتٍ تامٍّ ووضعها أمامه، ثم واصل عزام إشعال الشموع، وتوزيعها على أتباعه بالدور، شمعةً تلو الأخرى، حتى بدأ الضوء يتسلل إلى أنحاء المقبرة، وكل رجلٍ أمامه شمعةٌ مشتعلة، ما عدا "خليل" الذي ظلّ غارقًا في الظلام كأنّه مستبعدا!

تدريجيًا بدأت ملامح الجدران تتضح، كانت مغطاةً برموزٍ وأشكالٍ غريبة؛ دوائر ونقوشٍ داكنة امتدت على كل زاويةٍ، تشبه الطلاسم المرسومة بدقةٍ على الأرض، المشهد كان أشبه بكابوسٍ مرعب لكنه بالتأكيد واقعٌ لا مهربَ منه.

مدّ "عزام" ذراعيه وأمسك يد الرجل الذي على يمينه ويد الرجل على يساره، وهكذا فعل كل رجلٍ وامتدت الأيادي وتشابكت حتى اكتملت الدائرة، وعندها رفع "عزام" رأسه نحو "خليل" وكأنّه يسأله في صمتٍ:

- هل أنت مستعد؟

لم يكن "خليل" يملك إجابةً واضحةً، ورغم ذلك أومأ برأسه بحركةٍ غير متزنة، وهو لا يدري إن كانت تعني الموافقة، أم أنّها مجرد انعكاسٍ لارتباكه، وفي نفس الوقت أغمض "عزام" عينيه ببطءٍ، وسحب نفسًا عميقًا وقال:

- أقسمتُ عليكم أيتها الأرواح الشيطانية، الساكنون تحت الثري، أصحاب الجهات الأربعة، والطبائع الأربعة، الساكنون في الأفق والسحاب والهضاب.

وصمت للحظةٍ.. لحظة طويلة.. وفجأةً فتح عينه لكن هذه المرة لم تعد كما كانت؛ أصبحت سوداء تمامًا كأنّ الشياطين سيطرت عليه، ثم بدأ يردد بصوتٍ قويٍّ أجش:

- بحق الجن والجنود، والنور ونور النور، اسمعوا ما يوحي إليكم وأحضروا إلى مقامي وشموا دخاني واقضوا حاجتي، واجلبوا "دميان".

ظلّ "عزام" يكرر التعويذة أكثر من مرةٍ، وراح صوته يعلو شيئًا فشيئًا، لكنه لم يعد يأتي من فمه فحسب، بل بدا وكأنّه ينبعث من الجدران نفسها، مثل صدى يتردد في أنحاء المكان، يمتزج ويتغلغل في العظام.

ومع مرور الوقت، شعر "خليل" بلفحة هواءٍ ساخنة تمر حول جسده، ثم لاحظ حركةً خفيةً في أحد الأركان المظلمة وأدرك أنّ هناك شيئًا ما قد حضر، شيئًا يراقب ويتربص وينتظر أي خطأ في الطقوس ليقضي عليهم جميعًا!

بعد مدةٍ، ازدادت حركة الهواء قوةً، وتحوّلت إلى تيارٍ

محسوسٍ، ثم انطفأت الشموع جميعها كأنّ يدًا خفيةً أطفأتها دفعةً واحدةً، وأصبح المكان غارقًا في الظلام ولم يعد يبدده سوى ضوء المصباح الوحيد الذي وضعه "عزام" في الزاوية. وفي تلك اللحظة، ووسط هذا السكون المطبق، عاد صوت "عزام" يخترق العتمة وقد صار أكثر رعبًا من أي وقتٍ مضى:

- أقسمتُ عليكم أيتها الأرواح الشيطانية، بحق الأبالسة والدهانشة والقفاطشة والزوابع والعفاريت والعمالقة والخواطفة والمسترقي السمع من أفق السماء والغواصين تحت الثرى، وسكان البراري والقفار والكهوف والتلال ورؤس الجبال، من كان منكم أعجميًا أو عربيًا، فإني أقسمتُ عليكم أن تجيبوا دعوتي وتحضروا إلى مجلسي هذا.

فجأةً، اشتعلت نيران الشموع التي كانت انطفأت وارتفعت بصورةٍ غريبة، وتجاوزت السقف لدرجةٍ أنّها كادت أن تلتهم المكان بأكمله. وهنا، وعلى ضوء النيران ظهر "دميان" يجلس مباشرةً وراء الطفل الزوهريّ ويحتضنه بكلتا ذراعيه وهو يبتسم في خبث!

ارتعش كل الموجدين من هؤل الموقف ومن رؤية هذا المخلوق البشع وقرونه الضخمة المعقوفة، ما عدا "عزام" الذي قال بصوتٍ حادٍّ:

- الآن يا "خليل".

تحرّك "خليل" بسرعةٍ وأمسك بالسكين، لا يوجد وقتٌ للتردد ولا فرصة للهرب، كانت يده ترتجف وعرقه يتصبب، رفع السكين عاليًا عازمًا على تنفيذ ما طُلِب منه وقال دون وعي:

- بسم الـ...

صرخ "عزام":

- لا.. لا تنطقها.

لكن الأوان قد فات، نطق "خليل" بالبسملة، ولم يكد يفعل ذلك حتى انفجرت صرخةٌ مرعبةٌ من حلق الطفل جعلت المكان كله يرتج، وسقطت السكين من يد "خليل"، الذي اندفع إلى الوراء واضعًا يديه على أذنيه، محاولًا صد الضجيج القاتل لكن لا مهرب، لا مفر.. الصراخ قاتل رهيب!

نهض "دميان" وحرّك قرونه، ثم انقضّ على الجالسين وراح يضربهم بعنفٍ ويلقيهم في الهواء كأنّهم مجرد دُمى بلا وزنٍ، رجلٌ تلو الآخر.. يسقطون، يصرخون، لكن بلا جدوى.. سوف يموت الجميع الليلة!

حاول "خليل" أن يهرب لكن "دميان" انقضّ عليه وانتزعه من على الأرض ورفعه عاليًا جدًا حتى كاد أن يلامس السقف، فقال في ذعرٍ وتوسل:

- الرحمة.

زمجر "دميان" في غضبٍ وألقاه في الهواء بكل قوته، صرخ "خليل" وتخيّل أنّ الجدران تدور حوله، تدور وتدور. حاول أن يتشبث بالفراغ لكنه ارتطم بالحائط وسقط على الأرض بعنفٍ شديدٍ لدرجة أنّه شعر أنّ عظامه قد تحطمت بالكامل؛ هتف وهو يبصق الدماء من فمه:

- اللعنة.

كان طعم الدماء مالحًا غريبًا جدًا، ثم سمع صوت "عزام"

يصرخ:

- اقتله يا "خليل".

حاول أن ينهض لكن جسده رفض، الألم كان طاغيًا وعقله طالبه بالاستسلام، بالغرق في اللا وعي والهرب من هذا الجحيم، عاد "عزام" يصرخ في رعبٍ:

- اقتله وإلا سنموت جميعًا.

بصعوبةٍ شديدةٍ نهض "خليل" وتحامل على نفسه، أمسك السكين بكل قوةٍ ونظر إلى الطفل فرأى في عينيه شيئًا لم يفهمه؛ مزيجًا من الخوف والغضب وشيئًا آخر، قال الطفل بصوتٍ مبحوحٍ:

- أرجوك.. لا أريد أن أموت.

صرخ "خليل" وهو يغمض عينيه:

- إمّا أنت أو نحن؟

ثم غرز السكين في عنق الطفل و... وتدفقت الدماء.

الفصل الثاني
شط الغاب

بعد أعوامٍ كثيرة

الواحدة ظهرًا، السفر صيفًا، الوجه الآخر للجحيم على الأرض. داخل محطة قطارات مصر، كان المئات من المسافرين يلتصقون ببعضهم في انتظار القطار القادم، والذي جاء بعد قليلٍ يتلوى مثل ثعبانٍ عملاقٍ له رأس سوداء. أثناء ذلك رفعتُ الحقيبة على كتفي، وبمجرد أن اقترب القطار قفزتُ داخله، ألقيتُ نفسي على أقرب مقعدٍ وتنفستُ الصعداء، كانت الحرارة خانقةً والجو رطبًا ثقيلًا ومشبعًا برائحة العرق، في مواجهتي تجلس فتاة نحيفة، صفراء، حتى ابتسامتها صفراء؛ أدركتُ أنه لا مجال لتبادل الحديث معها، أغمضتُ عيني وحاولتُ الاسترخاء قليلًا، تساءلتُ في قرارة نفسي: هل يستحق الأمر كل هذا التعب؟ ضحكتُ بعصبيةٍ.. ربما.. ربما لا.

كنتُ قد حاولتُ الانتحار لكن تم إنقاذي بمعجزةٍ، أخبروني أن قلبي توقف عدة دقائق ومتُ، تعجبتُ من هذا لم أكن متمسكًا بالحياة إلى تلك الدرجة، ثم إنني لم أشاهد النفق المظلم الذي يقال أن الأموات يسيرون فيه!

نصحني أحد أصدقائي أن أبتعد عن زحام القاهرة؛ قررتُ الاستماع للنصيحة رغم أنّه لم يكن لديّ خطةٌ واضحة.

جمعتُ بعض متعلقاتي، وقررتُ السفر إلى أول مكانٍ خطر على بالي.

إلى مدينة "شط الغاب"!

مرّ الوقت..

وأخيرًا، وبعد ثلاث ساعاتٍ وصلتُ، اندفعتُ خارج القطار وأنا أسير حاملًا حقيبتي، شعرتُ بضيقٍ في التنفس لدرجةٍ اعتقدتُ أنها مجرد لحظاتٍ وسوف أفقد الوعي، لكن بصعوبةٍ تمالكتُ نفسي وخرجتُ من المحطة. استقبلتني أخيرًا نسمةُ هواءٍ باردة، ابتسمتُ رغمًا عني وأكملتُ طريقي، شاهدتُ عددًا كبيرًا من الشباب في الشوارع يتحرّكون بحماسٍ وبعضهم يركض أو يصرخ بلا هدف.

عبرتُ من بين مجموعةٍ من سيارات الميكروباص الأجرة، بينما تعلو أصوات المنادين وهم يعلنون عن الجهات التي ستتجه إليها تلك العربات، وصلتُ إلى بداية الطريق وهناك رأيتُ "حسين" يقف بجانب سيارة فيات صغيرة، كان يرتدي قميصًا صاخب الألوان وسلسلةً ذهبيةً تلمع حول عنقه، بينما تعكس نظارته الشمسية الزرقاء ضوء المحطة، صافحتُه بسرعةٍ وأنا أقفز داخل السيارة قائلًا:

- الجو جحيم.

ضحك "حسين" وهو يقول:

- الجحيم يرحب بك يا "شريف".

ثم فتح دُرج السيارة وراح يبحث عن شيءٍ ما، أخرج حفنةً عشوائيةً من الأوراق النقدية والعلب الفارغة قبل أن يعثر على علبة مناديل أعطاها لي قائلًا:

- تفضّل يا دكتور.

تناولتُ منه المنديل وأنا أتذكّر أول مرةٍ قابلتُه فيها، كان يبحث عن عملٍ وحاولتُ أن أساعده، قمتُ بتعيينه في المستشفى الذي كنتُ أعمل بها، وبمرور الوقت أصبحنا أصدقاء، كان ظريفًا ومرحًا جدًا، كما أنّه أذكى بكثيرٍ ممّا يبدو عليه، ولمدةٍ من الوقت كُنا نتجوّل سويًا ثم نذهب إلى قهوةٍ حقيرة لقضاء بعض الوقت، دائمًا لديه قصة أو حكاية مضحكة، لكنه استقال بعد وقتٍ قصيرٍ من موت زوجته، وانتقل إلى "شط الغاب" منذ خمسة أعوامٍ تقريبًا؛ ليعيش فيها وحيدًا بعيدًا عن ضجيج الحياة!

مسحتُ العرق عن وجهي وأنا أسأل "حسين":

- والآن إلى أين؟

أجاب وهو ينطلق بالسيارة:

- لا تقلق، ستعرف بعد قليل.

ثم التفت نحوي وسألني بجديةٍ:

- أخبرني عنك، كيف حالك الآن؟

أجبتُ باقتضابٍ:

- بخير.

نظر لي بطرف عينه، وقال بنبرةٍ مشككة:

- متأكّد؟

قلتُ بحدةٍ:

- قلتُ لك أنني بخيرٍ، لا تقلق، لن أحاول الانتحار مجددًا.

حاول "حسين" أن يبدو مرحًا فقال:

- وحتى لو حاولتَ، جثتك سوف تأتي عندي في المشرحة.

- هذه هي المشكلة، أنا لا أثق بك.

ضحك "حسين":

- لا تقلق، أفضل ثلاجةٍ في انتظارك.

فتحتْ زجاج النافذة وأشعلتْ سيجارةً، فقال "حسين" متأففًا:

- عدتَ للتدخين؟!

نفثتْ سحابة دخانٍ في اتجاهه متعمدًا استفزازه:

- منذ وقتٍ طويل.

سعل "حسين" وهو يلوّح بيده محاولًا إبعاد الدخان:

- ستقتلني هكذا.

ضحكتْ قائلًا:

- وهذا هو المطلوب.

- قُل لي، لماذا تدخن في حين أنّ التدخين يسبب الموت؟

- هذا صحيحٌ، ولكن من الضروري أن يموت المرء بسببٍ ما، أليس كذلك؟

قطّب "حسين" جبينه قائلًا:

- أنت أفضل من ذلك.

ألقيتْ السيجارة من النافذة بعد أن أخذتْ منها آخر نفسٍ، وقلتْ له:

- حسنًا، هل أنت سعيدٌ الآن؟

أجاب "حسين" وقد استعاد في الحال بشاشة وجهه:

- نعم، أنا سعيد.

ثم واصل القيادة حتى وصلنا إلى المنزل الذي سأقيم فيه الأشهر القادمة، بدا أشبه بشاليه صغيرٍ مهجور منذ سنواتٍ، لم يكن كما توقعتُ؛ كنتُ آمل أن يكون المكان أكثر فخامةً، نظرتُ إلى "حسين" وسألتُه في شكٍّ:

- هل أنت متأكِّد أن هذا هو العنوان؟

- بالطبع.

ثم أضاف وهو يطفئ المحرِّك:

- هذا منزل أحد معارفي، لديه عدة أماكن للإيجار، لكن عندما شرحتُ له ظروفك قال أن هذا أنسب مكانٍ لك.

ابتسمتُ بسخريةٍ وأنا أهبط من السيارة:

- روعة الروعة.

- هو قريبٌ جدًّا من البحر بالمناسبة.

- أنت تعلم كراهيتي للماء.

- إذا كنتَ لا تشعر بالراحة تجاهه فقط أخبرني ولن تكون هناك مشكلة.

- لا تقلق، سأتدبر أمري.

أشار "حسين" قائلًا:

- حسنًا، اتصلْ بي إن احتجتَ شيئًا.. إلى اللقاء.

انتظرتُ حتى ابتعد بسيارته، ثم تأملتُ المنزل قبل أن أتمتم بسخريةٍ:

- يبدو أن أيامي القادمة ستكون سعيدةً جدًا.

توقعتُ أن المنزل قد يكون أفضل من الداخل، لكن حين دخلتُ اكتشفتُ أن كل شيءٍ قديم.. نوافذ عالية، أثاث من أربعينيات القرن الماضي، تلفاز ضخم أشبه بصندوقٍ خشبيٍّ لامع، سجاد ثقيل يغلب عليه اللون الأحمر. في الواقع، لم يكن ذلك سيئًا على الإطلاق.

وضعتُ حقيبتي على الأرض وبدأتُ أتجوّل في أرجاء المنزل، وحاولتُ أن أستكشفه بسرعةٍ، رائحته تشبه رائحة بحيرةٍ قديمة؛ ربما يعود ذلك بسبب قربه من البحر كما قال "حسين". كان المنزل مكونًا من طابقين، يضم الطابق الأول صالةً واسعةً، غرفةً، وحمامًا. حسنًا كل شيءٍ يبدو على ما يرام، لكن فجأةً مزق كل ذلك صوت ضجيجٍ غريب!

سألتُ نفسي:

- هل هناك شخصٌ آخر في المنزل؟

أجابت نفسي:

- ربما يكون المسؤول عن تأجير المنزل.

قلت:

- لكن "حسين" أخبرني أنّه أنهى جميع الترتيبات!

ثم تحرّكتُ بحذرٍ نحو الطابق العلوي وأنا أنادي:

- مَن هناك؟

وهنا، رأيتُ امرأةً مذهولةً تحدّق بي، وقبل أن أنطق بكلمةٍ، انطلقت تصرخ بذعرٍ أشبه بصراخ الإسفنجة "سبونج بوب"،

ثم أخرجت من حقيبتها عبوة رذاذ فلفل حارق وأطلقتها مباشرةً نحوي!

فجأةً، تبدّل كل شيءٍ من حولي كأنّه مشهد سينمائي يجري بالحركة البطيئة، رأيتُ رذاذ الفلفل الحارق يقترب مني في خطوطٍ سوداء مستقيمة، انحنيتُ وحاولتُ تفاديه مثل كيانو ريفز في فيلم ماتريكس وهو يتفادى الرصاص، لكن تصويب تلك المرأة كان دقيقًا بشكلٍ قاتل، أعتقد أنّه لو كان رذاذ الفلفل طلقاتٍ نارية لتحوّل وجهي إلى مصفاةٍ ملئية بالثقوب.

صرختُ من الألم وشعرتُ أن عيني تحوّلت إلى جمرةٍ ملتهبةٍ ولم أعد أرى سوى بقعٍ بيضاء وسوداء تتصادم وتنفجر بلا صوت؛ قفزتُ في الهواء وحاولتُ أن أهرب من تلك المرأة لكنها ظلت تطاردني في استماتةٍ وتصميمٍ هائل على أن تتخلّص مني، اللعنة! سوف أموت على يد امرأةٍ غبية تصرخ مثل سبونج بوب.

***

بعد ساعةٍ تقريبًا من الفوضى، الصراخ، والكثير من الشرح والتوضيح وجدتُ نفسي جالسًا قبالة تلك المرأة التي أخبرتني أن اسمها "نورا"، كانت تضع حلقةً ذهبيةً في أنفها، وشعرها الكستنائي يتدلى بحُريةٍ على كتفيها، كانت فاتنةً أو يمكن القول أنّها فاتنة جدًا، قلتُ لها:

- يبدو أن صاحب المنزل قام بتأجيره لنا نحن الاثنان في نفس الوقت.

قالت بصوتٍ معتذر:

- أنا آسفة، ظننتُ أنّك جئتَ لاغتصابي.

نظرتُ إليها بانفعالٍ وقلتُ:

- وهل أبدو كشخصٍ يمكنه اغتصاب أحد؟

ابتسمت بخبثٍ:

- الحقيقة لا، أنت أضعف من ذلك.

شعرتُ أنّها تسخر مني، وكدتُ أن أنفعل عليها أكثر، وأخبرها أنني من الممكن أن أتحوّل إلى ذئبٍ بشريٍّ في أي وقتٍ، لكنها أدارت دفة الحديث بسرعةٍ واستطردت:

- المهم، ماذا سنفعل بشأن هذه المشكلة؟

- لديّ اقتراحٌ؛ يمكننا تقسيم المكان بيننا، أنت في الطابق العلوي، وأنا في السفلي.

نظرت لي قائلةً:

- أخشى أن تحاول اغتصابي.

- لماذا أنتِ مُصرةٌ على هذه الفكرة؟!

- عيناكِ الحمراء تقول ذلك.

صرختُ فيها:

- حمراء بسبب ما فعلتِه بي.

- رغم ذلك تبدو شريرًا.

لوّحتُ بيدي:

- حسنًا، أنا شرير، والآن هل توافقين على اقتراحي أم لا؟

- أعتقد أن هذا حلٌّ غير منطقي.

- يمكنكِ المغادرة بكل بساطة.

- لا، لن أغادر، هذا المكان مثالي لإنهاء روايتي الجديدة.

- إذن، أنتِ كاتبة؟

رفعت رأسها في غرورٍ وأجابت:

- ألم تسمع عني من قبل؟

تمعنتُ في ملامحها للحظاتٍ قبل أن أكذب بلباقة:

- في الواقع، نعم.. أشعر أنني قرأتُ لك، أنتِ تكتبين في مجال الـ...

- الرعب.

- بالضبط.

- ولديكِ رواية مشهورة بعنوان...

- شقة الفيوم.

- وحصلتِ على جائزة الـ...

- أنا لم أحصل على أي جوائز.

ثم عقدت حاجبيها وقالت:

- أنت تحاول خداعي، أليس كذلك؟

حاولتُ أن أبتسم:

- في الواقع.. نعم.. كنتُ أكذب.

تنهدت قائلةً:

- اسمعني جيدًا، أعتقد أنّك رجلٌ محترم وتستطيع أن تفهمني، أنا بحاجةٍ إلى هذا المكان؛ لأني أبحث عن الإلهام

ولا أظن أنني سوف أجده في أي مكانٍ آخر، خصوصًا وأنني أعمل على روايةٍ بعنوان "اغتصاب في المصيف".

- حقًّا؟ ما قصتكِ مع الاغتصاب؟

- أرجوك، لا تخرج عن الموضوع.

- بلهاء مسكينة.

- وغدٌ أحمق.

- اخرجي من هنا.

- بل تفضّل أنت بالخروج.

ثم أخرجت رزمةً من النقود وأضافت قائلةً:

- وإن كان الأمر متعلقًا بالمال الذي دفعته، خُذْ هذا المبلغ وانصرف.

اعتدلتُ في جلستي، ونظرتُ إليها بثباتٍ قبل أن أقول:

- آسف، كرامتي لا تسمح لي بأخذ المال من امرأةٍ؛ الحل الوحيد هو أن نتقاسم المكان.

احمرّ وجهها ثم قالت في حدة:

- موافقة، لكن بشرط.. لا تقترب مني.

قلتُ في حماس:

- أعدكِ.

ومددتُ يدي لأصافحها وأنا أحاول أن أبتسم، لكنها نظرت لي باستعلاءٍ، ثم نهضت وتركتني وحيدًا أحاول جمع كرامتي التي بعثرتها على الأرض.

***

داخل غرفتي استلقيتُ على الفراش، كانت الغرفة متوسطة المساحة وأثاثها بسيط جدًا، كل محتوياتها عبارة عن سرير، وطاولة، وكرسي، ولمبة، ومِشجب للملابس.. ولا أكثر!

أغمضتُ عيني مستمتعًا بالهدوء والصمت بعد كل ما جرى لي خلال هذا اليوم الطويل، تدريجيًا بدأتُ أشعر بالخدر اللذيذ يتسلل إلى جسدي، سوف أنام الآن و...

وفجأةً، انفجرت أصوات موسيقى صاخبة ومزعجة جعلتني أنتفض من مكاني وأقفز في الهواء؛ اندفعتُ أركض إلى الطابق العلوي وأنا أصيح:

- يا ست.

كانت الموسيقى المزعجة تأتي من غرفة نوم "نورا"؛ طرقتُ الباب بقسوةٍ حتى فتحت لي وبمجرد أن شاهدت وجهي المتورم صرخت:

- نعم؟!

- هل أنتِ مجنونة؟ أنا أعيش معكِ هنا؟

- لا أفهم.

قلتُ في غضبٍ وانا اضرب الهواء بيدي:

- الصوت.. الضوضاء.

تضرّج وجهها بالخجل وقالت:

- آه، فهمت.

ثم أسرعت وخفضت الصوت وهي تقول بنبرة اعتذارٍ:

- آسفة، اعتدتُ أن أحتفل كلّما أنهيتُ فصلًا جديدًا من الرواية.

تنهدتُ، ولأول مرةٍ اشعر أنني كنتُ وقحًا جدا، قلتُ بصوتٍ أكثر هدوءًا:

- اعتذر، لم أقصد أن أكون حادًا هكذا.

- لا بأس، والآن ما رأيك بفنجان قهوة؟

قلت وانا أبتسم:

- موافق طبعا.

ذهبت "نورا" إلى المطبخ ثم عادت بعد لحظاتٍ وهي تحمل صينيةً زجاجيةً عليها فنجانان من القهوة، رائحة البُن الطازج تملأ الغرفة، وضعت الصينية على الطاولة برفقٍ؛ فالتقطتُ فنجاني وسألتُها:

- جراءة كبيرة منكِ أن تعيشي هنا وحدكِ.

قالت بلا اكتراثٍ:

- ربما.

- وأهلكِ؟

- في القاهرة.

- أشعر أنهم ليسوا من أنصار فكرة المرأة المستقلة.

ضحكت ضحكةً رقيقةً وقالت:

- لا ينقصك إلا أن تفتح لي محضرًا للتحقيق وتطالبني بالشهود.

بادلتها الضحك وأنا أقول:

- لن أتنازل عن أربعة شهود.

ثم حاولتُ أن أدير دفة الحديث:

- حسب ما فهمتُ، أنتِ تكتبين قصصَ رعب؟

ارتشفت رشفةً هادئةً، ثم وضعت الفنجان جانبًا وقالت:

- صحيح جدًا، يمكنك القول أنني خبيرةٌ في عالم الماورائيات والسحر.

- الماورائيات والسحر معًا؟ يبدو أنّكِ تتعاملين مع عالمٍ واسع جدًا.

- السحر ليس خرافةً بل علمًا قديمًا. في كتاب "شمس المعارف الكبرى" والذي يعتبر من أشهر كتب السحر، هناك فصولٌ كاملة عن أسرار الحروف والأرقام، وكيفية تسخير الجن والشياطين عن طريق الطلاسم.

لوّحتُ بيدي مثل ساحر سيرك مبتدئ وقلتُ في مرح:

- "أبرا كادابرا".

- صدّق أو لا تصدّق لكن "أبرا كادابرا" طلسم حقيقي كان الناس يستخدمونه قديمًا في السحر، وينقشونه على التمائم ويرتدونه للحماية من الشياطين أو لاستدعاء الأرواح، لكن كانوا ينطقونه "أبراها درابرا"، قبل أن تتحور الكلمة وتنتشر بعد ذلك في سلسلة أفلام "هاري بوتر" وتصبح تعويذةً القتل و...

بترت "نورا" حديثها حين انبعث فجأةً صوت أزيزٍ وشوشرة غريبة!

التفتُ نحو مصدر الصوت؛ فرأيتُ جهاز لا سلكي قديم جدًا موجود في زاوية الغرفة، كان مصنوعًا من الخشب الثقيل، وتبدو حوافه محترقةً قليلًا، كما لو أنّه نجا من حريقٍ قديم.

قالت "نورا" وهي تشير عليه:

- يفعل ذلك كل فترةٍ رغم أنه غير متصلٍ بأي مصدر طاقة.

نهضتُ ببطءٍ واقتربتُ من الجهاز وأنا أراقب مؤشره وهو يهتز قبل أن أقول:

- غريب جدًا.

أمسكتُ الجهاز وبمجرد أن لامسته حتى انتابني إحساسٌ غريب، بدا كأنّه يتنفس، حوافه تنتفخ ببطءٍ، ثم تنحني إلى الداخل، مثل نبضًا خفيًا يجري في العروق!

في البداية، اعتقدتُ أن الأمر مجرد خداعٍ بصريٍّ أو مشكلة في عيني، لكن صوت "نورا" أكّد لي أن ما أراه حقيقيًا عندما قالت:

- إنه يتنفس.

ثم نهضت من مكانها وأضافت قائلةً:

- عندما دخلتُ إلى هنا أول مرة، سمعتُ صوتًا يشبه الصرخة يخرج منه، كان الأمر مرعبًا جدًا؛ ولذلك رميته في هذا الركن.

حين سمعتُ ذلك تملّكني الفضول وأخذتُ أفحص الجهاز، لاحظتُ أنه لا توجد فيه بطاريات ولا أي مصدر طاقة، خفيف جدًا كأنّه فارغٌ تمامًا من الداخل، مجرد هيكل خشبيٍّ لا حياة فيه، لكن خلف الشبكة المعدنية التي تغطيه، كنتُ أسمع صوتًا

أجش متقطعًا، يبدو كشخصٍ ما يحاول أن يتحدّث أو يبعث رسالة!

اقتربت مني "نورا" وأخذت الجهاز وكان لا يزال ينبض، ثم التفتت نحوي وابتسمت ابتسامةً غامضةً قبل أن تقول:

- راقبْ جيدًا.

تابعتُ ما ستفعله باهتمامٍ فرأيتُها ترفع الجهاز قليلًا، وتخاطبه بصوتٍ هادئٍ لكنه حازم:

- توقفْ.

في تلك اللحظة، توقفت حركة الجهاز بغتة، وانقطعت الأصوات الصادرة منه كأنّ شخصًا ضغط على زر الإيقاف، شعرتُ بقُشعريرةٍ تسري في جسدي وقلتُ:

- غريب جدًا

- نعم

- اعتقد أن الـ...

لكن قبل أن أكمل جملتي، انبعث من سماعة الجهاز صوت همسٍ مشوشٍ كأنّ أحدهم يتحدّث من مكانٍ بعيدٍ قبل أن يرتفع الصوت تدريجيًا، صوت طفلٍ ينادي ويقول بوضوحٍ:

- "شريف".. "شريف".

تجمّدتُ في مكاني، وشعرتُ بقلبي يهوي في صدري وقلتُ:

- مستحيل.

وبدون تفكيرٍ أغلقتُ الجهاز وابتعدتُ عنه في رعبٍ!

رمقتني "نورا" بنظرةٍ صارمة قبل أن تسألني في حذرٍ:

- هل تعرف صاحب الصوت؟!

نظرتُ إليها وقلتُ في اضطرابٍ:

- نعم، أعرفه.. اسمه "ريان".

ثم أضفتُ وأنا أرتجف:

لكن "ريان" ميت.

***

أدرتُ مؤشر الجهاز مرةً أخرى بعد أن استوعبتُ جزءًا من الصدمة؛ راقبتُ الضوء الأزرق الخافت من تحت غلاف السماعة والذبذبات الخفيفة التي تصدر منه، ثم قلت:

- لقد بدا.

قالت "نورا" بصوتٍ خافت وهي تمسك يدي:

- أنا خائفة

مرت لحظاتٌ من الصمت المشحون قبل أن يخرج من السماعة صوتٌ يستغيث:

- هل يسمعني أحد؟!

شعرتُ بوخزةٍ في صدري، لم أصدق أذني في البداية؛ التفت لـ"نورا" وسألتُها:

- هل سمعتِه؟

أومأت برأسها وقالت:

- بوضوح.

عدتُ للجهاز وقلتُ بصوتٍ مضطربٍ:

- "ريان".. أنا أسمعك.. كيف تتواصل معي؟

ساد الصمت مجددًا، ثم جاء الرد أضعف قليلًا كأنّه يصدر من ممرٍ طويلٍ بلا نهاية:

- لا أعلم، أنا فقط أسمع صوتك وأجيب. هنا تصل إلينا الأشياء بطرقٍ غير مفهومة.. المكان مخيف.. مخيف.

بدأتُ أشعر بقطراتٍ من العرق تتجمع على جبيني وأنا أقول:

- أيّ مكانٍ تقصد؟

جاءني صوت "ريان" هذه المرة حاد جدًا كأنّه يتهمني:

- أنت تفهم جيدًا ما أقصده يا شريف.

نظرتُ إلى الجهاز مجددًا، كان المؤشر يرتجف وينبض بالحياة، لم يعد هناك شكٌ، هذا الصوت لا ينتمي إلى عالمنا. فجأةً، عاد صوت "ريان" يسأل:

- هل تواصل معك أحدٌ آخر؟

قلتُ وأنا أبلع ريقي بصعوبةٍ:

- مَن تقصد؟

- الأموات!

ارتجفتُ حين سمعتُ تلك الكلمة وقلتُ:

- أعلم أنك.. أنك ميت بالفعل.. لكن كيف أستطيع سماعك؟

- ومَن قال أن الموت يمنعنا من الكلام؟!

شعرتُ بقُشعريرةٍ أشد هذه المرة، وسألته بتوجس:

- ماذا تريد بالضبط؟

أجاب بسرعةٍ كأنّه كان ينتظر هذا السؤال:

- أريد أن...

لكن قبل أن يكمل جملته، ارتفعت أصوات التشويش وامتزجت معها ضوضاء غريبة صاخبة، ثم فجأةً خمد كل شيء، توقف الجهاز عن الاهتزاز، وعاد إلى سكونه كأنّ الحياة قد انسحبت منه تمامًا!

استدرث إلى "نورا" وعيناي تبحثان عن يقينٍ وسط دوامة الشك، وقلث لها في عصبية:

- أشعر أنني أفقد عقلي.

قالت "نورا":

- كل شيءٍ له تفسير.

ثم استرخت على أقرب مقعد وأضافت:

- الموت ليس النهاية.. يمكن القول أنه بدايةٌ لحياةٍ أخرى، حياة لا نعرف عنها إلا القليل، لا أحد عاد من الموت ليخبرنا بما رآه هناك. ورغم ذلك، هناك نقاط اتصالٍ تربطنا بعالم الأموات، كالأحلام التي تتيح لنا التواصل مع الأرواح، فتنقل إلينا رسائل أو تحذيرات. من الوارد جدًا أن يكون هذا الجهاز -لسبب ما- قد تحوّل إلى وسيلة تواصل.

سألثها في حيرةٍ:

- وما هذا السبب برأيك؟

انعقد حاجباها وهي تقول:

- ربما توجد طاقة روحية قوية في هذا المكان، أو ربما الجهاز نفسه ملعون.

ثم مالت نحوي وسألتني:

- هل سمعتَ عن "ظاهرة الصوت الإلكتروني"؟

حرّكتُ رأسي وأنا أقول:

- لا، أنا جاهل تمامًا.

أجابت وهي تعتدل في مكانها:

- ظاهرة الصوت الإلكتروني الـ"EVP" اختصار لـ"Electronic Voice Phenomena" هي أصوات مجهولة تم رصدها بالصدفة من خلال بعض أجهزة الاتصال. وهناك مَن يعتقد أنها أصوات أرواح الموتى أو كيانات من عوالم أخرى تحاول التواصل معنا لإيصال رسائل معينة.

- أعتقد أنها مجرد خرافات.

- ليست خرافاتٍ يا "شريف"، هناك أدلة كثيرة.. تسجيلات صوتية غريبة، أبحاث ودراسات أجراها علماء وباحثون. في الثمانيات مثلًا اخترع أحد العلماء جهازًا أطلق عليه اسم "لاقط الأرواح"، وأعلن أنه تمكّن من إجراء محادثةٍ مع روح شخصٍ متوفى.

- وهل تصدقين حقًا أن هذه الأصوات تأتي من أرواح الموتى؟

هزت كتفيها وقالت:

- ليس مهمًا إن كنتُ أصدق أم لا، المهم الآن أن نفهم طبيعة

الشيء الذي يحاول التواصل معنا، وكيف نتأكّد أنه بشريٌ؟

حدّقتُ في وجهها وأنا أسألها:

- ماذا تقصدين؟

أجابت في غموضٍ:

- أقصد أن هناك احتمالًا كبيرًا أن هذا الكيان ليس روح إنسان.

الفصل الثالث

النداء

استيقظتُ نحو الساعة العاشرة صباحًا وشعرتُ بالدهشة؛ لأنني استطعتُ النوم بعد كل ما جرى، كنتُ قد نسيتُ أن أسدل الستائر في غرفتي، وكانت أشعة الشمس القاسية تتدفق لتغمر المكان بالداخل، نهضتُ متثاقلًا واتجهتُ إلى المطبخ وهناك وجدتُ "نورا" واقفةً تعد القهوة، ألقيتُ عليها التحيةَ بصوتٍ مرهق:

- صباح النور.

رفعت عينيها نحوي وابتسمت بخفةٍ:

- صباح الخير.

فتحتُ الثلاجة وبدأتُ أبحث بين محتوياتها، كانت شحيحةً من الداخل، صنعتُ لنفسي شطيرةً من كل شيءٍ وجدتُه أمامي تقريبًا، رغيف خبزٍ محشو بالعسل والمربى، فوقهم طبقة رقيقة من القشطة، ثم التفتُ إلى "نورا" وسألتُها:

- هل تريدين أن أعد لكِ واحدة؟

- شكرًا.

- وجبة الإفطار هي أهم وجبة في اليوم.

تناولتُ قضمةً سريعةً من الشطيرة، فكاد طعمها الفظيع أن يفقدني الوعي، سارعت بإلقائها في سلة المهملات، فقهقهت "نورا" وهي تقول في سخرية:

- كنت اعتقد أن وجبة الإفطار هي أهم وجبة.

- سأكتفي بشرب القهوة.

ضحكت "نورا" للحظة ثم قالت في جدية:

- كنتُ أريد التحدُّث معك في أمرٍ ما.

قلتُ وانا أملأ فنجاني بالقهوة:

- تفضلي.

- قررتُ أن أترك لك المنزل وأذهب إلى مكانٍ آخر.

التفتُ نحوها في دهشةٍ وسألتُها:

- لماذا؟ والرواية؟

خفضت عينيها قليلًا وقالت:

- لا أريد أن أزعجك أكثر من ذلك.

اقتربتُ منها قائلًا:

- ومَن قال أنني أشعر بالانزعاج؟!

فتحت فمها لترد، لكني أسرعتُ أقول:

- ثم إننا لم نكتشف بعد سر الجهاز.

ارتسمت على وجهها ابتسامةٌ عريضةٌ وسألتُ في مكرٍ:

- فقط لهذا السبب؟

بادلتُها الابتسامة وأجبتُ بنبرةٍ مازحة:

- ربما هناك أسبابٌ أخرى.

- يا لكَ من خبيث.

قلتُ ضاحكًا:

- الأحمق فقط هو مَن يرى هذا الجمال ولا يتمنى أن يعيش معه.

داعبت خصلةً من شعرها الأسود وقالت:

- أنت تتحدّث كما لو كُنا عاشقين افترقا ثم تلاقيا.

قلت في رجاء:

- من فضلك.

قالت ببطء كأنها تفكر:

- أنا...

قاطعتها بسرعة:

- قبل أن تقرري الرحيل دعيني أسألكِ شيئًا: ألستِ خائفةً حقًا؟

- خائفة من ماذا؟

قلتُ وأنا أراقب رد فعلها:

- من الجهاز.. من الشيء الذي يقف خلفه.. ومن كل ما قد يحدث لاحقًا.

وضعت فنجانها على الطاولة وقالت بهدوءٍ:

- أنا أؤمن أن لكل شيءٍ تفسيرًا، حتى الأمور التي تبدو غريبةً أو مخيفةً. في النهاية، كل ما نراه ليس سوى ألغاز علينا حلها.

تأملتها للحظاتٍ قبل أن أسألها:

- إذن، هل حقًا ترغبين في الهرب؟

لوّحت بيدها:

- لستُ متأكّدةً؛ لكنني أعرف شيئًا واحدًا، الأمور التي تبدأ بهذه الطريقة نادرًا ما تنتهي بشكلٍ جيد.

- ومع ذلك، هناك شيءٌ بداخلكِ يدفعكِ للاستمرار. أليس كذلك؟

غمغمت:

- نعم.

- حسنًا، لديّ اقتراحٌ، بدلًا من أن نترك الخوف يسيطر علينا، لماذا لا نحاول كشف القصة كاملة؟

- ماذا تقصد؟

قلتُ في حماسٍ:

- وجود هذا الجهاز هنا ليس مجرد صدفة؛ هناك شيءٌ أكبر خلف هذا كله، والوحيد الذي يمكنه مساعدتنا هو...

قاطعتني قائلةً:

- لا تقول إن علينا الذهاب إلى شيخٍ روحانيٍّ أو دجالٍ.

- لا، سوف أكمل التواصل مع "ريان".

فكّرت "نورا" قليلًا قبل أن تقول:

- حسنًا، لنرَ إلى أين سيقودنا هذا الأمر، لكن إن شعرتُ أن الأمر بدأ يخرج عن السيطرة فسنتوقف فورًا.

- اتفقنا.

وفي تلك اللحظة، سمعتُ صدًى غريبًا يخرج من الجهاز وكأنّ هناك مَن كان يستمع إلى حديثنا ويضحك عليه.

***

جلستُ أنا و"نورا" في صالة المنزل، والجهاز يقبع أمامنا على طاولةٍ خشبية ساكنًا كأنّه ينتظرنا، وضعتُ يدي على المؤشر المعدني، وبدأتُ أحرّكه ببطءٍ؛ كنتُ أشعر أن شيئًا يوشك أن ينفجر. لحظات وعاد الجهاز يتنفس مرةً أخرى؛ راقبتُ انبساط الجوانب وحركته الشبيهة بالشهيق والزفير. وفجأةً اخترق السكون صوت "ريان":

- "شريف".. أرجوك.. أنقذني.

رفعتُ بصري إلى "نورا" فوجدتُها تنظر بترقب، سألتُ "ريان" وأنا خائفٌ من سماع الإجابة:

- "ريان".. أين أنت؟

طال الصمت، ثم جاء صوت "ريان" بعد مدةٍ منخفضًا ومشحونًا برجفةٍ غير مرئية:

- أنا.. في مكانٍ بارد.. ومظلم.

- منذ متى وأنت هناك؟

ردّ كأنّه يلومني:

- منذ زمنٍ.. المكان هنا ظلام.. وهناك أصوات.. أصوات غريبة تهمس حولي طول الوقت.

بلعتُ ريقي بصعوبةٍ وأنا أسأله:

- وماذا تريد مني؟

- أريدك أن تخرجني.

صرختُ فيه:

- من أين؟

أجاب "ريان" بصوتٍ حادٍّ:

- من القبر.

كررتُ دون وعي:

- القبر!

قال بصوتٍ مبحوحٍ:

- نعم.. أنا هناك.

ثم هتف بصوتٍ أضعف وأقرب للبكاء:

- أنا داخل قبرٍ يا "شريف".. أنقذني.

- لا...

قلت ذلك وأغلقتُ الجهاز، ثم نظرت إلى "نورا":

- لم أعد قادرًا على تحمل المزيد.

وضعت "نورا" يدها على كتفي وسألتني:

- خائف؟

- أريد أن أنكر.. لكن نعم.. أنا خائف.

- أنا على عكسك تمامًا.. أعتقد أننا نمتلك فرصةً ذهبيةً للتواصل مع الأموات.. الجميل هنا أنني لا نحتاج إلى جهازٍ خاصٍّ أو الذهاب إلى المقابر ليلًا أو اتباع أي تعليماتٍ غريبة، كل ما نحتاجه فقط هو ذلك الجهاز.

فكرتُ قليلًا، قبل أن أقول:

- دعينا نكمل غدًا، أحتاج أن أتنفس.

قالت ببساطةٍ:

- كما تشاء.

ثم أشارت إلى الجهاز وأضافت:

- يمكنك أن تحتفظ به.

وبالفعل، حملتُ الجهاز وذهبتُ به ووضعتُه في دولاب غرفتي وأغلقتُ عليه جيدًا، لكن بمجرد أن فعلتُ ذلك فوجئتُ بانقطاع التيار الكهربائي لتصبح الشقة غارقةً في الظلام، وفي نفس اللحظة تسللت إلى أنفي رائحةٌ غريبة تشبه رائحة الكبريت المحترق وسمعتُ صوت شخصٍ يتحرّك في الصالة!

ناديتُ بصوتٍ مرتفع:

- "نورا"؟!

وهنا شعرتُ ببرودةٍ غريبةٍ تزحف أسفل أقدامي، ثم سمعتُ ما يبدو أنه نداءٌ لكنه قادمٌ من الحمام، ذهبتُ إلى هناك دون تردد وبمجرد أن اقتربتُ لاحظتُ وجود شعاعٍ ضوءٍ أحمر يخرج من أسفل عقب الباب، قمتُ بالطرق على الباب وأنا أقول في حذرٍ:

- "نورا"، هل أنتِ بخير؟

في تلك اللحظة، بدا بخار المياه الساخن يختلط ويتجمّع على زجاج الباب وكأنّ يدًا خفيةً تتحكّم به وتقوم بكتابة حروفٍ غير متصلةٍ، وتدريجيًا بدأت الحروف تتصل ببعضها وتصنع كلمةً واحدة فقط.. كلمة "ريان"!

كانت هناك مئات من الأسئلة وعلامات الاستفهام التي تدور في رأسي، لكن تجاوزتُها سريعًا ومضيتُ عبر الباب؛ وجدتُ

نفسي أقف في ظلامٍ غريبٍ، كانت هناك إضاءة تأتي من مكانٍ ما. كنتُ أستطيع رؤية بعض ملامح المكان، وفجأةً شعرتُ ببرودةٍ عند قدمي!

حين نظرتُ شاهدتُ شيئًا مرعبا يتحرّك فوق ساقي، ظلًا أسود يشبه الثعبان!

حاولتُ أن أتراجع لكن الظل تسلّق كل جسدي ووصل عند عنقي، وبدأ يخترقه؛ صرختُ لكن الظل قبض على عنقي بلا رحمةٍ وراح يعتصره، حاولتُ أنا أقاوم لكن رغمًا عني بدأتُ أفقد السيطرة، لم أعد قادرًا على التنفس، الهواء نفسه لم يعد موجودًا، ركلتُ الجدار بقدمي فسقطتُ على الأرض!

- اللعنة.

الظلام يزحف بسرعةٍ وأنا أموت بسرعةٍ أكبر.

***

لا أعرف ما الذي حدث بعد ذلك، لكن عندما فتحتُ عيني، وجدتُ نفسي ممددًا على الفراش، و"نورا" تجلس بالقرب مني تراقبني في حذرٍ وقلقٍ؛ اعتدلتُ في مكاني بصعوبةٍ وسألتُها بصوتٍ واهن:

- ماذا حدث؟

أجابت وصوتها لا يخلو من التوتر:

- انتظرتُك أن تعود بعد أن أخذتَ الجهاز، لكن حين تأخرتَ ذهبتُ لأبحث عنكَ وفوجئتُ بك ملقى على الأرض فاقدًا الوعي.

شرحتُ لها باختصار شديد ما حدث معي؛ فنظرت لي في

شكٌّ غريبٌ قبل أن تقول:

- هل تود أن نذهب إلى الطبيب؟

حاولتُ أن أبتسم:

- لا داعي، لقد أصبحتُ بخيرٍ الآن.

- لا يبدو عليك ذلك.

- لماذا تقولين هذا؟

- أثناء فقدانك الوعي وبدافع الفضول قمتُ بعمل بحثٍ عنك، واكتشفتُ أنكَ كنتَ طبيبًا ناجحًا للغاية قبل أن تتعرّض لحادث أو صدمة أصابتك بنوعٍ من أنواع الهلاوس والجنون.

حاولتُ أن أكظم غضبي وأنا أقول:

- تقصدين أن ما حدث لي منذ قليلٍ هو مجرد هلوسة؟

- ليس بالضبط، لكن ربما كانت خيالات.

قلتُ في حدةٍ:

- أنتِ بنفسك رأيتِ الجهاز وسمعتِ الأصوات.

- أنا فقط أشعر ببعض الارتباك.

- "نورا"، أنا لستُ مريضًا. نعم، كنتُ قد تعرّضتُ لصدمةٍ قوية لكني الآن بخير.

هتفت "نورا" في انفعالٍ:

- ما هي يا "شريف"؟ ما هي الصدمة التي فعلت بك ذلك؟

قلتُ وأنا أحاول الهرب من الإجابة:

- هذه مسألةٌ معقّدةٌ، لا يمكنكِ أن تفهمي.

لكنها هتفت في انفعالٍ أكبر:

- ما علاقتك بـ"ريان"؟ ولماذا يتواصل معك أنتَ بالذات؟ كل هذه أسئلة تحتاج إلى إجابات.

فقدتُ السيطرة على أعصابي وقلتُ:

- هذا ليس من شأنكِ.

ارتبكت وقالت:

- أنا.. أنا آسفة.. أنا...

قاطعتُها غاضبًا:

- اخرجي من فضلك.

احتقن وجهها ثم خرجت وأغلقت الباب خلفها بقوة!

فكّرتُ قليلًا..

أنا متأكّدٌ أن ما حدث معي ليس مجرد هلاوس؛ نهضتُ واتجهتُ إلى الدولاب وأخرجتُ منه الجهاز وبدأتُ أحرّك مؤشره بجنونٍ، الغريب أن هذه المرة لم يأتِ منه أي صوتٍ. جربتُ مرة ثانيةً وثالثة.. ورابعة.. لا فائدة!

شعرتُ بالضيق والغضب، ثم ألقيتُ الجهاز على الأرض بعنفٍ قُلتُ في حنقٍ:

- أوهام.. مجرد أوهام.

وهنا، عاد الجهاز ينبض من جديدٍ وتصدر منه شوشرةٌ منخفضة، ثم تحرّك المؤشر كأنّ هناك يدًا خفيةً تحرّكه. وبعد لحظةٍ، توقف المؤشر عند علامة معينة، وارتفعت أصوات الشوشرة وتحوّلت إلى أزيزٍ قبل أن يخرج صوتٌ مكتوم:

- أقسمتُ عليك يا ناصور وأخوك شمعون، بحق النار والنيران والبرد والوهجان.. أقسمتُ عليك يا ناصور وأخوك شمعون.. بحق هاروت وماروت ورسول الجن ياقوت وعيطوش الهلاس والوسواس الخناس.

ومع آخر كلمةٍ شعرتُ أن الحياة بدأت تدبُّ في أثاث الغرفة، وأن كل شيءٍ من حولي يستيقظ من سُباته ويتحرّك!

اندفعتُ بسرعةٍ نحو الجهاز لأُغلقه، لكن فجأةً تجمّدتُ في مكاني، كما لو أن قوةً خفيةً قيدتني في موضعي، وفي نفس الوقت بدأ المؤشر يتحرّك من تلقاء نفسه، وانبعث منه صوت "ريان" يقول بصوتٍ خافت لكنه واضح:

- "شريف"، أنت بخير؟

في اللحظة ذاتها، شعرتُ بتلك اليد الخفية التي كانت تقيدني تتلاشى وتتركني، واستطعتُ وقتها أن أتحرّك. اقتربتُ من الجهاز وجلستُ بجواره قبل أن أتكلم:

- نعم، أنا بخير، لكن ما الذي يحدث لي؟ ما هذا الذي أراه وأسمعه؟

قال "ريان" بصوتٍ أقرب للهمس:

- الشيطان يحاول أن يؤذيك.

شعرتُ بقُشعريرةٍ باردةٍ تسري في جسدي، ورغم ذلك حاولتُ أن أتماسك وقلتُ في توتر:

- وما شأني بكل هذا؟

صاح بانفعالٍ:

- أنت السبب.. أرجوك.. أنا خائف.. ساعدني.

ازدادت ضربات قلبي وسألته:

- كيف؟

قال بصوتٍ خافت:

- تعال عندي.. أنا في مقبرةٍ.. مقبرةٍ ذات جدرانٍ خضراء، لها ثلاثة أبوابٍ من الحديد، منقوشًا عليها اسمي وتاريخ وفاتي.. وبجوارها شجرة كافور قديمة.

- وبعد ذلك؟!

أجاب بسرعة:

- أخرجني من هناك.

بعدها، تحوَّل صوته إلى نبرةٍ مشوشةٍ ومذعورة، قبل أن أسمع صوت صراخٍ قادم، كما لو أن شيئًا مجهولًا يهجم عليه:

- "ريان"، ما الذي يحدث عندك؟

جاءني صوته شبه مكتوم:

- أنقذني.. أرجوك.. خلصني منه.

- مَن هو؟!

- الشيطان ذو العيون الحمراء.. كل ما يلمسه ينبض.. يتوهج.. يتحوَّل إلى رمادٍ.

قلت بانفعال:

- مَن؟

صرخ "ريان" في رعب:

- "دميان".

ثم دوت صرخةٌ مروعةٌ وبعدها اختفي صوت "ريان"، لكن ظلّ صدى الصرخة يتردد داخل عقلي بلا توقف.. ويتردد.. ويتردد.

الفصل الرابع
يومٌ طويلٌ من الرعب

الصباح مرةً أخرى

نهضتُ بصعوبةٍ ونظرتُ في الساعة، كانت قد تجاوزت العاشرة صباحًا بقليلٍ، تثاءبتُ بقوةٍ وأنا أشعر بصداعٍ هائل وطنينٍ يدوي داخل عقلي؛ تحرّكتُ واتجهتُ إلى الصالة، بحثتُ عن "نورا" هنا وهناك، وجدتُ منها ورقةً مكتوبةً تقول فيها أنها خرجت لشراء شيءٍ ما!

- لا مشكلة.

عدتُ إلى غرفتي وأنا أفكّر في الخطوة التالية؛ ارتديتُ ملابس خفيفةً وخرجتُ من المنزل ثم قمتُ بالاتصال على "حسين"، وطلبتُ منه أن يقابلني حالًا وقلتُ له:

- أريد أن أتحدّث معك في أمرٍ مهمٍ.

حاول أن يعتذر خصوصًا أن هذا يوم الجمعة لكن صممتُ، واتفقنا على اللقاء.

خرجتُ من المنزل فلاحظتُ أن اصفرار الشمس قد ازداد، وأن الحركة في الشوارع قليلة جدًا؛ عرفتُ بعد ذلك أن أهل "شط الغاب" يتشاءمون من يوم السبت ولا يفضلون القيام بأي عملٍ في هذا اليوم بالذات؛ خوفًا من أن تحدث كارثةٌ أو تصيبهم لعنةٌ، ولهذا يقومون بتأجيل الأعمال كلها إلى يوم الأحد. وحين سألتُ "حسين" عن السر؟ قال لي أن لديهم اعتقادًا أن في يوم السبت ساعةً تخرج فيها مردة الجن إلى الشوارع لارتكاب المصائب!

تجاوزتُ هذا التفسير الذي يشبه خرافات الدجالين والعواجيز، وحكيتُ له باختصارٍ شديدٍ موضوع الجهاز والأصوات الصادرة منه، فقال دون تفكيرٍ:

- أنا أصدق كل كلمةٍ تقولها.

قلتُ له في استغرابٍ:

- لم أتوقّع أن تصدقني بتلك السهولة!

أبتسم:

- هناك شائعةٌ منتشرة أن هناك شيطانًا يعيش هنا في "شط الغاب".

- أيُّ شيطانٍ؟

أجاب قائلًا:

- شيطانٌ ماجوسيٌ كافر يُدعى "دميان".

انتبهتُ حين نطق "حسين" اسم "دميان"؛ "ريان" أيضًا تحدّث معي عنه، أعتقد أن هناك رابطًا ما لكن لا أستطيع أن أضع يدي عليه، التفتُ إلى "حسين" وسألتُه:

- لكن أنت تقول أنها شائعة؟!

هزّ رأسه:

- لا، بل حقيقة؛ لقد شاهدتُ بنفسي ما يمكن أن يفعله. والآن، هل أنت مستعد؟

سألتُه في حيرةٍ:

- مستعد لأي شيءٍ؟

أجاب وهو يعقد ذراعيه أمام صدره:

- أن تسمع قصةً أغرب من الخيال؛ قصة بيت "سعدية".

نظرتُ إليه في فضولٍ:

- "سعدية" مَن؟

- أرملةٌ عجوزٌ كانت تسكن في شارعنا مع ولديها.

ثم تنهد بعمقٍ قبل أن يستأنف ويقول:

- كان ذلك منذ ثلاثة أعوامٍ عندما استدعت "سعدية" شيخًا يُدعى "الجريدي"، وطلبت منه المجيء إلى منزلها، وقالت له أن سكان العالم السفلي لا يتركونها هي وأولادها وأنهم يعانون بشدة.

- وماذا فعل الشيخ؟

- ذهب إلى بيتها، لكن لفت انتباهه أن ابنها الأكبر بدا وكأنّه غائبٌ عن الوعي، أو عقله ليس في كامل إدراكه. سألها عنه، فأجابت أنه كان طبيعيًا تمامًا، لكن في أحد الأيام نزل إلى بدروم البيت ولم يخرج منه اختفى هناك، بحثت عنه في كل مكانٍ دون أثرٍ لدرجة أنها اعتقدت أنه قد يكون خرج ولم تره، لكن بعد مرور يومٍ كامل فوجئت به يخرج من البدروم، خرج بعقلٍ تائه، ونوبات صرعٍ غريبة.

- ربما تمّ اختطافه؟

- بالفعل، تم اختطافه، لكن مَن الذي اختطفه؟ بشرٌ أم جنٌّ؟

- أتقصد أن الجن اختطفه؟

أكمل "حسين" كلامه دون أن يرد على سؤالي وقال:

- قالت "سعدية" بعد ذلك أن مع عودة ابنها بدأت تسمع أصواتًا غريبةً في البيت، أصواتًا تخرج من تحت الأرض، ومن خلف الجدران وضحكات في منتصف الليل. ولكن أغرب ما حدث كان في إحدى الليالي حين رأت في الصالة مخلوقًا شيطانيًا يطوف في الهواء.

- ربما كانت "سعدية" إنسانةً مريضةً نفسيًا وتتخيّل كل ذلك؟

هزّ "حسين" رأسه نافيًا، وقال بثقةٍ:

- لا، لأن الطفل الصغير هو أيضًا تكلّم مع الشيخ "الجريدي" وأخبره بأشياء مرعبة؛ حكى له أنه في يومٍ وتحديدًا بعد صلاة العشاء، خرج من غرفته، فوجد أمامه كلبًا أسود نائمًا على الأرض، ورأسه ملتفٌ بطريقةٍ غريبة، تعجب الطفل من أين أتى هذا الكلب؟! ورغم ذلك اقترب منه وضربه، وهنا تحرّك الكلب وتحدّث مع الطفل بلغةٍ غامضة غير مفهومة، قبل أن يركض باتجاه الحمام ويختفي هناك بلا أثر!

في تلك الليلة، رأى الطفل في منامه مخلوقًا قبيحَ الملامح، وقال له بصوتٍ أجش: "أنا كنت نائمًا وأنت أيقظتني"، ثم ضربه على وجهه؛ فاستيقظ الطفل مفزوعًا، ليجد خده مصابًا، وإحدى أسنانه مكسورة.

- غريبٌ جدًا!

قال "حسين" وهو يمسح على لحيته:

- نعم، لكن ليس هذا أغرب ما حدث له. بعدها ببضعة أيامٍ كان الطفل نائمًا واستيقظ على صوت طرقٍ شديدٍ على الباب؛

نهض ليفتح، لكنه لم يجد أحدًا. عاد إلى سريره، وحاول أن ينام لكن الطرق تكرر، هذه المرة كان أقوى؛ ذهب ليفتح الباب مرةً أخرى، لكنه لم يجد أحدًا مجددًا. أصيب بالرعب الشديد وأيقظ والدته التي بحثت عن مصدر الصوت ليكتشفوا أن الطرق لم يكن يأتي من باب المنزل، بل كان صادرًا من باب الحمام المغلق كأنّ هناك شيئًا شريرًا يريد الخروج.

- كأنّك تحكي مشهدًا من رواية رعب.

هزّ "حسين" رأسه قائلًا:

- الفرق أنه حدث بالفعل.

ثم عاد يكمل القصة:

- بعد أن استمع الشيخ "الجريدي" إلى كلام "سعدية"، قرر أن يقرأ القرآن في البيت، لكن أثناء التلاوة، انطفأت أنوار المنزل فجأةً، الظلام طغى على المكان تمامًا، ومن بين الظلام سمع الجميع صوت نعالٍ تدور حولهم، كأنّ أحدًا يسير في المكان ويتحرّك بسرعةٍ. وبعد لحظاتٍ، عاد النور مجددًا ورأى الجميع شيئًا أغرب من الخيال؛ كانت توجد آثار أقدامٍ وحوافر على السقف، ثم سمعوا صوت ضحكاتٍ تأتي من تحت الأرض. وضع الشيخ رأسه على الأرض وسأل "مَن أنت؟". سمع صوتًا يشبه نباح الكلاب يقول له: "اخرج من أرضي".

- وماذا فعل؟

- رأى رؤيا؛ قال أنه رأى سردابًا مظلمًا في بدروم البيت.

- وهل نزل إليه؟

- نزل

- و...؟

- ولم يعد، اختفى هناك تمامًا ولم يظهر له أي أثرٍ بعد ذلك.

تجمّدت الكلمات في فمي بينما أكمل "حسين":

- بعد أيامٍ، لجأت "سعدية" إلى شيخٍ آخر، لا أحد يعلم ما الذي فعله لكنه استطاع أن يعثر على "الجريدي" مدفونًا تحت الأرض، جثةً هامدةً، النمل ينهش رأسه وأطرافه كلها مقطوعة كأنّه تعرّض لعقابٍ لا يمكن تصوره.

انتهى "حسين" من حكايته، فقلتُ له:

- "حسين"، ما علاقة ذلك بما يحدث لي؟

نظر إلَيّ نظرةً طويلةً ثم قال:

- أنا فقط أخشى أن تكون نهايتك مثل نهاية الشيخ "الجريدي".

لوّحتُ بيدي وأنا أقول:

- وماذا تريد مني أن أفعل؟

أجاب "حسين" بانفعالٍ:

- تراجعْ، انسَ الموضوع.

- لا أستطيع، لو أنك سمعتَ كيف كان "ريان" يتعذب ويتوسل لي، لما قلتَ هذا أبدًا، يجب أن أساعده، لا بدّ من ذلك، أنا مضطر.

- مَن قال أنك مضطرّ؟

فتحتُ فمي لأشرح له وأقول:

- أنا...

لكن بترتُ كلامي في اللحظة الأخيرة وقلتُ:

- لديّ أسبابي الخاصة.

نظر "حسين" جيدًا في وجهي ويبدو أنه فهمني، ثم سألني:

- وكيف ستفعل ذلك؟

- حاليًا لا أعرف، لكن فكّرتُ أن ألجأ إلى أي شخصٍ يفهم في تلك الأمور.. معالج روحاني مثلًا.

- تقصد شيخًا؟

لوّحتُ بيدي:

- المسميات ليست مهمة، المهم أن يكون قديمًا في هذا المجال.

صمت "حسين" للحظاتٍ وكأنّه يفكّر، ثم قال:

- أنا أعرف الشيخ الذي استعانت به "سعدية" وأخرج "الجريدي" من تحت الأرض، يقال أنه صاحب كراماتٍ كثيرة. ما رأيك أن نذهب إليه؟

قلتُ وأنا أنهض بسرعةٍ:

- إجابتي معروفة، هيّا بنا.

ركبتُ مع "حسين" سيارته وسار بها حتى وصلنا إلى منطقةٍ هادئةٍ من المدينة، تصطف فيها بيوتٌ ومنازل واسعة وضخمة، يخيّم عليها صمتٌ لا يشبه الصمت الطبيعي، بل أقرب إلى السكون الذي يسبق العاصفة. قال "حسين" وهو يوقف سيارته أمام بوابة منزلٍ كبير:

- لا تتوقع هنا أن تشاهد شيئًا تقليديًا ومظاهر أفلام رعبٍ

رخيصة.

قلتُ وأنا أتأمل تضاريس وزخرفة المنزل:

- ثراء فاحش.

ابتسم "حسين":

- أمثال هذا الرجل أحيانًا يتم الاستعانة بهم في استخراج الكنوز ويكون لهم نصيبٌ فيها.

- معلومة جديدة.

- هناك شائعاتٌ تقول أنه بالفعل فتح مقبرةً فرعونيةً منذ أعوامٍ مع شخصٍ يُدعى "خليل" وهذا هو سر ثروته.

- نسيتَ أن تخبرني باسم هذا الشيخ؟!

قال "حسين" وهو يهبط من السيارة:

- اسمه "عزام"، الشيخ "عزام أبو شمعة".

***

توقفتُ أنا و"حسين" أمام باب منزل "عزام"، كان الباب مصنوعًا من خشبٍ مطليٍّ بلونٍ أخضر باهت، ومنقوشًا عليه رمزٌ غريبٌ يشبه العين المفتوحة داخل مثلث!

طرق "حسين" الباب ولم ننتظر طويلًا حتى فُتح الباب بهدوء، وخرج رجلٌ أعور العين، قال له "حسين":

- نريد مقابلة مولانا يا "عنبر".

اكتفى "عنبر" بإيماءةٍ بسيطة ثم دعانا للدخول دون أن ينطق بكلمةٍ. كانت رائحة البخور تملأ المكان، ليست رائحةً عادية بل تلك التي تستقر في قاع الرئتين وتترك طعمًا

في الحلق، مشينا عبر ممرٍ رخاميٍّ مضاءٍ بإضاءةٍ ناعمة خافتة تتدلى من سقفٍ مرتفع، عليه نقوشٌ عربية دقيقة. لا شيء في المكان يوحي بالسحر أو الأرواح، بل بدا البيت وكأنّه منزل طبيبٍ نفسيٍّ ثري، أو فيلسوفٍ متقاعد. قال لي "حسين" بصوتٍ منخفضٍ:

- "عزام" لا يحب الأسئلة الكثيرة، فقط تحدّث معه بصدقٍ وسيستمع.

دخلنا إلى غرفةٍ دائريةٍ واسعة، الجدران فيها مزينة بمعلقاتٍ قديمة، لا هي دينية ولا سحرية، بل شيءٌ بينهما كأنّها تفصل بين العوالم، وفي منتصف الغرفة رأيتُ "عزام" يجلس على سجادةٍ خضراء، تحيط به كتبٌ ومخطوطاتٌ ذات غلافٍ جلديٍّ باهت. كان يرتدي عباءةً سوداء، ويضع عمامةً خضراء داكنةً تغطي نصف جبهته، بينما كانت تلمع مسبحته الطويلة بين أصابعه وتتحرّك من تلقاء نفسها على نحو عجيب!

قال "حسين" مخاطبًا "عزام" وهو يقدمني إليه:

- "شريف" صديقي في مأزقٍ شديدٍ ويحتاج إلى مساعدتك.

أومأ "عزام" دون أن تهتز ملامحه، ثم حدّق في وجهي طويلًا، قبل ان يشير إلى وسادة صغيرة أمامه ويقول لي:

- اجلس، وتكلم.

وبالفعل جلستُ في مواجهته وبدأتُ أحكي له كل شيء عن الجهاز، ونداء الاستغاثة، والأصوات التي تخرج منه. وحين انتهيتُ، قال عزام بصوتٍ هادئ، لكنه يحمل نبرةً لا تخلو من الحزم:

- إذا كنتَ تريد نصيحتي، ارجغ إلى بيتك، حطِّم ذلك الجهاز، وانسَ الأمر تمامًا.

التفتُ إلى "حسين" وقلتُ مستنكرًا:

- هل أحضرتني إلى شيخٍ حقيقيٍّ أم إلى دجالٍ محتال؟!

رمقني "عزام" في غضبٍ وقال:

- أنا أنصحك.

أجبتُه في عنادٍ:

- وأنا لا أريد نصيحةً، أريدك أن تستحضر روح "ريان" وسأدفع لك كل ما تريد.

سكت للحظةٍ ثم قال:

- سأفعل.. لكن لا تلومنَّ إلا نفسك.

شعرتُ بقُشعريرةٍ تسري في جسدي وسألتُه في حذرٍ:

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن ما سوف نقوم بتحضيره ربما يكون شيئًا آخر.. شيئًا يحاول خداعك.

- تقصد شيطانًا؟

- نعم.

نظرتُ إلى "حسين"، فإذا به يومئ برأسه في صمتٍ إشارةً إلى أن نغادر المكان، لكن "عزام" تابع حديثه:

- والآن، هل تريدني أن أستدعي هذا الكيان، أم أنك ستأخذ بنصيحتي وتغادر؟

نظرتُ إليه بإصرارٍ وقلتُ دون تردد:

- افعلها.

ابتسم "عزام" ابتسامةً خبيثةً وقال:

- كما تريد، لكن تذكّر شيئًا مهمًا جدًا بمجرد أن أبدأ لا يجب على أيٍّ منكما أن ينظر حوله، أو يتحدّث مهما حدث وإلا...

- وإلا ماذا؟

ازدادت ابتسامة "عزام" خبثًا وهو يجيب:

- الأفضل ألا تعرف، فقط افعل ما أقوله لك.

ثم أخذ نفسًا عميقًا، وأغمض عينيه، وبدأ طقوس الاستحضار.

***

أخرج "عزام" زجاجةً صغيرةً فيها سائل أسود لزج، ثم شمّر أكمام جلبابه فظهرت على كلتا يديه نقوشٌ عبارةً عن كلامٍ وحروفٍ غير مفهومة، تبدأ من منتصف ساعده وتصل حتى عنقه. أحضر طاسةً نحاسيةً ووضعها أمامه وألقى فيها بعض الحطب، وأشعل النار وانتظر حتى تحوّل الحطب إلى رمادٍ. أمسك الزجاجة وقام بسكب ما فيها فوق الرماد ثم بدأ يخلط الرماد بالسائل حتى تحوّل إلى مزيجٍ كريه الرائحة، أحضر ريشةَ طائرٍ وغمسها في المزيج كأنّه يمسك قلمًا ويضعه في دواة الحبر. تناول قطعة قماشٍ بيضاء ورسم نجمةً خماسيةً مقلوبةً وحاوطها بدائرةٍ وكتب داخلها حروفًا وأرقامًا ورموزًا سحرية، وبعد أن انتهى رفع قطعةَ القماش ووضعها على وجهه فاختفى وجهه تمامًا وبدأ الطقوس!

"عزام" مدّ كلتا يديه إلى جانبيه وتكلّم بصوتٍ مختلفٍ عن صوته.. صوتٍ خشنٍ مخيف:

- بحق القلم واللوح.. بحق علشاقيش، إسماطون، لوطياف، هلولياه.. أجيبوا يا خدام هذه الأسماء.. أجب يا موطاطيل أنت وأعوانك من الخدم والشياطين. أسألك أن تسخّر لي واحدًا من خدام اسمك يخدمني فيما أريد.

وبمجرد أن انتهى من نطق آخر حرفٍ، شعرتُ أن الزمن قد تجمّد للحظاتٍ مع صوت همهمةٍ منخفضةٍ تشبه صوت خوار شيءٍ يحتضر، وفي نفس الوقت انحنى ظهر "عزام" ببطءٍ شديدٍ، وارتفعت حفنة غبارٍ صفراء جاءت من العدم، ومن وسط الغبار تجسّد ما يشبه وجهًا بشريًا ضخمًا!

تدريجيًا بدأتُ أشعر أن المكان يمتلئ بالأشباح والجن والشياطين رغم أنه لا يوجد شيءٌ ظاهر غير هذا الوجه المرعب، الذي تجسّد وراح ينظر لي في غضب!

سمعتُ "حسين" يهتف في رعبٍ:

- يا إلهي!

لكن "عزام" صرخ فيه:

- لا تتكلم.

بعد قليلٍ، تحرّك الوجه وفتح فمًا وخرج منه صوتٌ غريبٌ مشوشٌ كأنّ مئات الرجال يتحدثون في وقتٍ واحد، وقال:

- "شريف".

ثم بصوتٍ أكثر حدةً نادى:

- "حسين".

كاد "حسين" أن يرد لكن "عزام" صرخ فيه مجددًا:

- إيّاكَ أن ترد عليه.

قالها "عزام" وهو ما زال يضع القماشة فوق وجهه ولا يرى شيئًا، لكنه رغم ذلك علم بما كان ينوي "حسين" أن يفعله كأنّما كان يرى كل شيءٍ بوضوحٍ شديدا!

التفت "عزام" للوجه المعلّق في الهواء وبدا يتحدّث معه، قال:

- "ريان".

وهنا، توقف كل شيءٍ، اختفت كل الأصوات وعاد الصمت يضرب المكان، ثم خرج صوتٌ آخر خائف مرتعش، صوتٌ استطعتُ أن أميّزه فورًا.. كان صوت "ريان" يقول:

- أين أنا؟

قلتُ بسرعةٍ:

- "ريان"، أنا "شريف".

- "شريف"، كنتُ خائفًا أن تنساني.

- لا يمكن أن أفعل.

بمجرد أن قلتُ ذلك حتى وشعرتُ بيدٍ باردةٍ تقبض على كتفي، ثم تحرّكت اليد وزحفت على عنقي، لمحت فقط جزءًا من تلك اليد، أظافر سوداء وجلد ممزق، لم أكن أستطيع التحرُّك من شدة الرعب، سمعتُ "عزام" يصيح في ارتياع:

- سامحوه.. سامحوه.

ارتفعت اليد عن عنقي وكأنّ قوةً خفيةً جذبتها بعيدًا، بينما عاد "عزام" يصرخ بغضبٍ:

- لا أحد يتكلم مجددًا.

ثم أدار رأسه ناحية الوجه الذي تجسّد في الغرفة، وسأله بصوتٍ ثابت:

- مَن أنت؟

ارتعش صوت "ريان" وهو يقول لي:

- "شريف"، مَن هذا الرجل؟ إنه يخيفني.

لكن "عزام" تجاهله وصرخ فيه:

- أجبني.

وفجأةً، بدأ "ريان" يصرخ وظهر الخوف والذعر على صوته كأنّه يحاول الهرب من شيءٍ ما:

- لا.. ابتعدوا عني.. ابتعدوا عني.

ثم دوت صرخاتٌ مروعة هزت المكان وجعلت الجدران كلها ترتجف معها. ناديتُ:

- "ريان"؟!

لكن لا رد، صمتٌ رهيبٌ، "ريان" تبخّر تمامًا!

بعد قليلٍ، أزاح "عزام" القماش عن وجهه، فتدفق عرقٌ غزيرٌ من جبينه، وظهر احمرارٌ شديدٌ في عينه. سألته بصوتٍ مبحوحٍ:

- ما الذي حدث يا شيخ "عزام"؟

نظر لي للحظِة قبل أن يجيب:

- هذه أول مرة أرى شيئًا كهذا، هناك شيطانٌ يمنع "ريان" من الكلام.

بلعثُ ريقي بصعوبةٍ وأنا أسأله:

- أي شيطانٍ؟

أجاب في سرعةٍ وحسمٍ:

- "دميان".. لا أحد غيره قادر على فعل ذلك.

- وماذا يعني هذا؟

عقد حاجبيه وهو يقول:

- يعني أن الأمر أخطر وأكثر رعبًا ممّا تتخيل.

***

ضغط "حسين" على دواسة الوقود وهو ينطلق مبتعدًا عن منزل "عزام" ثم التفت نحوي وهو يقول:

- أنا أتفق مع كلام "عزام"، اترك هذا الأمر وحاول أن تنساه.

أشعلتُ سيجارةً، وسحبتُ منها نفسًا عميقًا ثم قلتُ:

- لكن ماذا لو كانت روح "ريان" تحتاج مني أن أساعدها فعلًا؟

قال "حسين" في جدية:

- هذه الأمور لا يأتي من ورائها خيرٌ أبدًا.

حرّكتُ رأسي قائلًا:

- وما المانع؟

ثم فكّرتُ للحظةٍ قبل أن أضيف:

- ربما يكون "ريان" في حاجةٍ حقيقيةٍ إلى مساعدتي، لقد فشلتُ معه مرةً ولا أنوي أن أفشل ثانيةً.

غمغم "حسين" في استغرابٍ:

- أنا لا أفهمك.

لم أرد عليه، واكتفيتُ بالنظر من نافذة السيارة، كان يمكنني رؤية الشوارع المزدحمة بالرغم من الوقت المتأخر، ثم وجدتُ نفسي أعود بذاكرتي إلى الوراء، إلى عامٍ واحد فقط في المستشفى الخاصة التي كنتُ أعمل بها، في هذا اليوم كنتُ أجلس مع "ريان" وأقول له:

- لا تقلق، الأسبوع القادم سأجرى لك الجراحة، وستتحسن حالتك.

لم يستطع "ريان" الرد بسبب ضعفه الشديد، لكن والدته السيدة "زينب" التي كانت تقف بجواره نظرت لي بعينين غارقتين في الامتنان وقالت بصوتٍ مرتعش:

- لا أعرف كيف أشكرك دكتور شريف.

ابتسمتُ لها لأجعلها تطمئن وتهدأ:

- الأهم هو أن يتحسن "ريان".

ثم خرجتُ من الغرفة، وفي طريقي التقيت بمدير المستشفى فبادرتُه قائلًا:

- حالة "ريان" أصبحت مستقرةً، وأعتقد أن الجراحة الأسبوع المقبل ستنقذ حياته.

تنهد الرجل قائلًا:

- في الحقيقة، كنتُ أريد التحدُّث معك بشأن "ريان".

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن...

فجأةً، وعند تلك النقطة، أفقتُ من دوامة ذكرياتي على صوت "حسين" يتحدّث معي:

- شريف.. شريف؟!

تنفستُ بعمقٍ قبل أن أجيبه:

- نعم.

قال "حسين":

- فيما كنتَ تفكّر؟

قلتُ وأنا أهزُّ رأسي:

- لا شيء، مجرد ذكريات قديمة.

قال بلا اكتراثٍ:

- كما تشاء.

ثم توقف بالسيارة واستطرد قائلًا:

- أهلًا بك في منزلي المتواضع، كما أخبرتُك سوف تبيت الليلة عندي.

فتحتُ فمي لأنطق لكنه أسرع يقول:

- لا مجال للاعتراض، يبدو على وجهك التعب والإعياء وأنا لن أتركك وأنت في هذه الحالة.

قلتُ في توتر وأنا أنزل من السيارة:

- حسنًا، أتمنى فقط أن تكون ليلةً هادئةً.

أبتسم "حسين":

- اهدأ يا صديقي، إنها فترة الليل فحسب.

ثم أضاف في غموضٍ:

- وأيضًا هناك مفاجأة في انتظارك.

قال ذلك وراحت ابتسامته تتسع.. وتتسع.. وتتسع.

***

- تفضَّل.

قالها "حسين" في هدوءٍ وهو يفتح لي باب المنزل، دخلتُ وشعرتُ أن الصالة أكبر ممَّا رأيتُها آخر مرة، كانت عروق السقف أكثر بروزًا، والكنبة بياضتها متسخة ومساندها نائمة، والحجرات كلها مقفولة؛ قلتُ وأنا أبحث عن إجابةٍ:

- هذا المنزل ينقصه شيءٌ؟

ابتسم "حسين":

- امرأة ترقص لنا.

- لا حياء في الجهل ولا خجل.

أحضر "حسين" نصف دستةٍ من زجاجات البيرة، وقال:

- المفاجأة التي أخبرتُك عنها.

تناولتُ أول زجاجةٍ وأنا أقول:

- توقعت أفضل من ذلك

- ماذا توقعت؟

قلت وأنا اضحك:

- امرأة ترقص لنا.

- أحلام اليقظة هذه مدمرة جدا.

وضعت الزجاجة جانبا ثم قلت:

- بالمناسبة أنا بحاجة منك إلى خدمة.

- ما الذي تريده؟

- يلزمني سلاح.

هتف "حسين" في دهشةٍ:

- ماذا.. تريد سلاحًا؟!

- نعم، أريد مسدسًا.

ضحك "حسين":

- هل تظن أنني تاجر سلاحٍ مثلًا؟!

- لا، لكن أنا أعلم أنك تمتلك مسدسًا؛ أنت أخبرتني.

مال "حسين" نحوي وهو يقول:

- ولماذا تريده؟

- للدفاع عن نفسي في حالة إذا ما ساءت الأمور.

- أخشى أن تقتل نفسك.

- لا، صدقني هو لكي أحمي نفسي به فقط.

نظر "حسين" في عيني طويلًا قبل أن يقول:

- الأسلحة لا تصلح في مواجهة هذه الأشياء.

- على الأقل سوف أشعر معها بالأمان.

- أمانٌ زائف.

قلتُ بنفاد صبرٍ:

- خلاصة القول هل تستطيع تدبير سلاحٍ لي أم لا؟

تنهد "حسين" وقال:

- انتظرني.

ثم نهض وذهب إلى غرفته وغاب بضعة دقائق، عاد وهو يحمل في يده مسدسًا متوسطَ الحجم، وضعه أمامي على الطاولة وقال:

- هذا مسدس سميث آند ويسون موديل 60، خمس طلقات.

سمعتُ ذلك ودخلت المعلومة من أذنٍ وخرجت من الأذن الأخرى، ثم قلتُ له:

- كيف يعمل؟

قال وهو يصوّب المسدس في وجهي مباشرةً:

- بسيط.. فقط انزع زر الأمان واضغط الزناد.

- "حسين"!

ابتسم وهو يضع المسدس أمامي:

- لا تخَفْ، إنه خالي من الطلقات.

تناولتُ المسدس، كان ثقيل الوزن نوعًا ما، باردًا وفوهته مرعبة جدًا، قلتُ:

- هل يمكن أن أحتفظ به؟

ضحك "حسين":

- طبعًا لا.

ثم انتزعه مني وأضاف في جدية:

- أردتُ فقط أن أريك كم هو مرعب.

- إذن، لا فائدة منك.

- هذا لمصلحتك.

نهضتُ من مكاني وقلتُ:

- أريد أن أنام.

قال "حسين" وهو يشير إلى أحد الغرف المغلقة:

- تفضّل هناك.

- جيدة؟

ابتسم وأجاب:

- خمسة نجوم.

بادلته الابتسامة ولم أعقب فطاقتي كانت قد نفدت، اتجهتُ نحو الغرفة التي أشار إليها، كانت غرفةً حقيرةً بمعنى الكلمة. ألقيتُ نفسي على الفراش بسبب التعب، فكّرتُ قليلًا في "نورا"، في الحقيقة كنتُ أفتقدها كثيرًا؛ أرسلتُ إليها رسالةً نصيةً قبل أن أخلد إلى النوم، قلتُ فيها "أنني أتمنى أن يكون كل شيءٍ على ما يُرام". وكان وجهها هو آخر ما فكّرتُ فيه وأنا مستلقٍ في الفراش!

بعد مدةٍ، استيقظتُ على يدٍ قاسية تهزُّ كتفي، فتحتُ عيني

فوجدتُ "حسين"؛ تعجبتُ للحظةٍ وقبل أن أسأله ماذا يريد، أشار لي قائلًا:

- تعال.

نهضتُ خلفه كما لو كنتُ تحت تأثير التنويم المغناطيسي، حتى وصلتُ إلى الصالة، وهناك رأيتُ مسخًا شيطانيًا يجلس على طاولة الطعام وأمامه طبقٌ كبيرٌ مغطى، كما لو أننا في وليمةٍ حقيقة.

جلس "حسين" إلى جانب المسخ وأشار لي لكي أجلس أمامهما، كان المسخ يحدّق في وجهي وعيونه جاحظة على نحوٍ مرعبٍ مخيف، تحرّكتُ وكأنّ قدمي لم تعد لي، وجلستُ حيث أراد، كنتُ أشعر برعبٍ قاتل يسيطر على كل حواسي، لكن جسدي كله رفض الاستجابة لعقلي الذي يكاد أن ينهار من شدة الخوف.

مدّ "حسين" يده، ورفع الغطاء ليكشف عن سائل أسود كثيف يشبه الدم الفاسد، تفوح منه رائحةٌ كريهة جعلت معدتي تنقبض بقوةٍ:

- اللعنة!

بمنتهى الهدوء، أمسك "حسين" طبقًا فارغًا، وسكب بعضًا من ذلك السائل بالمغرفة، ووضعه أمام المسخ ثم ملأ طبقًا آخر وقدّمه لي، قبل أن يسكب لنفسه قائلًا:

- طعامًا شهيًا.

أمسك المسخ الملعقة وبدأ يأكل بشهيةٍ مفتوحة، بينما شرع "حسين" في تناول الطعام هو أيضًا. أمّا أنا، فقد كنتُ جالسًا

أمامهما بلا حولٍ ولا قوة، مشلول الإرادة، لا أقوى على الرفض أو الهروب، وفجأةً قال المسخ بصوتٍ أجش وهو يشير نحوي:

- لماذا لا تأكل؟ هل يضايقك وجودي؟!

- اللعنة، ألا ترى نفسك؟!

صرختُ بذلك لكن الكلمات لم تتجاوز حلقي، بينما قال له "حسين" بصوتٍ هادئ:

- بالطبع لا، أنت ضيفٌ عزيزٌ علينا وصاحب مقامٍ رفيع.

ثم انحنى نحوي وهمس في أذني:

- أرجوك يا "شريف"، لا تجعل الضيف يشعر أننا لا نكرمه.

وكأنّني لم أعد أملك السيطرة على نفسي، رفعتُ يدي تلقائيًا وأمسكتُ بالملعقة وغمستُها في السائل الأسود وأنا أقول:

- لا، لا أريد تذوق هذا الشيء.

لكن بلا جدوى، وضعتُ الملعقة في فمي وبدأتُ آكل، فابتسم "حسين" قائلا:

- رائع، أليس كذلك؟!

كان الطعم مقززًا جدًا وأشبه بمزيجٍ من العفن والدود، بل وأكثر من هذا شعرتُ بأشياءٍ صغيرة تتحرّك داخل فمي، كانت ديدانًا بالفعل!

ومع ذلك بلعتُ، وبمجرد أن دخل ذلك السائل في جوفي، شعرتُ وكأنّني ابتلعتُ ماء نارٍ يحرق أحشائي ويمزقها، فقال

المسخ ضاحكًا:

- لذيذ.. أليس كذلك؟

قلتُ مرغمًا وأنا أبكي:

- تبًا، أريد المزيد.

ثم عادت يدي تملأ الملعقة مرةً أخرى وتضعها في فمي.

الفصل الخامس
ثلاجة الموتى

- يكفي.

استيقظتُ من النوم وأنا أشهق!

استغرق مني الأمر لحظاتٍ حتى بدأتُ أستعيد وعيي، وأفصل ما بين هو حقيقيٌ وغير حقيقيٍ، كان كل شيءٍ حولي طبيعيًا جدًا؛ لا وجود للمسخ أو "حسين"، فقط هناك طعمٌ مرٌ جدًا في فمي!

حاولت أن أقنع نفسي إن كل ما حدث مجرد كابوس. اعتدلتُ في مكاني ثم نظرتُ في هاتفي وأنا أحاول التخلص ممّا تبقى من النوم في رأسي، وجدتُ أن "نورا" قد اتصلت بي مرتين وتركت لي رسالةً تخبرني فيها أنها تشعر بالقلق لغيابي. لم أكن مستعدًا للحديث معها، نهضتُ من السرير وكنتُ لا أزال بملابسي من ليلة أمس، بحثتُ عن "حسين" في المنزل غير موجودٍ، فكّرتُ أنه قد يكون ذهب إلى المستشفى التي يعمل بها. رمقتُ ساعة يدي فوجدتُ أنها تشير إلى العاشرة صباحًا، اتصلتُ على "حسين" وسألتُه وأنا أحاول أن أخفي عصبيتي:

- أين أنت؟

أجاب في هدوءٍ:

- في المشرحة، لكن لا تقلق مجرد بعض الأمور العالقة في العمل وسأعود خلال ساعةٍ تقريبًا.

- لا، سوف آتي إليك؛ أحتاج أن أتحدّث معك بشأن الليلة

الماضية.

- وما الذي حدث في الليلة الماضية؟ أنت كنتَ نائمًا كالقتيل.

- سوف أشرح لك حين أقابلك.

قال وهو يضحك:

- حسنًا، أنا في انتظارك، لكن تأكّد فقط أنك لا تخاف من المشرحة أو الأموات.

قلت وأنا أحاول أن أبادله الضحك:

- هذه لعبتي يا صديقي.

ارتفع صوت ضحكته أكثر وهو يقول:

- سنرى.

أنهيتُ المكالمة وخرجتُ من المنزل بعد قليل، أوقفتُ أول تاكسي مرّ من أمامي وغصتُ في كنبته الخلفية، ثم قلتُ للسائق:

- المستشفى العام.

بعد نصف ساعةٍ تقريبًا كنتُ هناك. سألتُ عن "حسين" في مكتب استقبال المستشفى فأخبروني أنه في المشرحة في الدور الرابع حيث يعمل، ركبتُ المصعد وصعدتُ إلى هناك، عبرتُ ممرًا باردًا طويلًا حتى وصلتُ إلى المشرحة، كان الباب مغلقًا بالمفتاح حيث لا يُسمح بالدخول إلا للعاملين فقط!

وقفتُ أمام الباب وطرقتُ عليه، ولم تمضِ سوى لحظاتٍ حتى فتح لي "حسين" الباب وهو يقول لي توتر:

- تأخرتَ، اعتقدتُ أنك لن تأتي.

تعجبتُ من طريقته في الكلام والتوتر الظاهر على ملامحه، لكن دخلتُ وأنا أقول له:

- مشرحة في الطابق الرابع.. هراء بلا شك.

قال في اقتضابٍ غريب:

- ربما.

ثم أضاف بصوتٍ حادٍّ:

- أتمنى أن تستمتع.

وقبل أن أفهم ماذا يقصد؛ فوجئتُ بملامح وجهه تتقلص ثم خرج من المشرحة بسرعةٍ وأغلق الباب خلفه وأنا ما زلتُ في الداخل!

هرعتُ إلى الباب وبدأتُ أطرق عليه بكل قوةٍ لكن دون جدوى، أصبحتُ مسجونًا داخل المشرحة، كيف لم ألاحظ نظرات "حسين" الغريبة وعينيه الجاحظتين؟!

أنا الآن في مصيبةٍ جديدةٍ، وبما أن المصائب التي مثل هذه لا تكتمل إلا بانقطاع التيار الكهربائي وانطفاء الأنوار فإن هذا هو ما حدث فعلًا!

حرفيًا شعرتُ بأن قلبي قد سقط بين قدمي، وأدركتُ أن الصراخ لن يجدي نفعًا، وضعتُ يدي في جيبي فلم أجد سوى ولاعتي؛ يبدو أنني نسيتُ هاتفي في منزل "حسين"، أخرجتُ الولاعة وأشعلتُها بعد محاولاتٍ عدة، كانت إضاءتها ضعيفة جدًا، تحرّكتُ يمينًا ويسارًا حاولتُ البحث عن شيءٍ أستخدمه في فتح الباب لكنني لم أجد شيئًا مفيدًا. وفجأةً، وسط هذا

السكون المريب، سمعتُ أنينًا خافتًا وكأنَّ أحدًا يتألم:

- آهٍ.. آهٍ.. آهٍ.

هل يُعقل أن يستيقظ أحد الأموات الآن؟!

***

تتبعتُ مصدر الصوت؛ كان الصوت قادمًا من ثلاجات حفظ الموتى؛ اقتربتُ منها بحذرٍ شديدٍ وكلّما اقتربتُ كان الصوت يرتفع أكثر وأكثر!

فجأةً، انطفأت الولاعة في يدي وغرقتُ في الظلام! ارتجف جسدي بالكامل، وكدتُ أفقد أعصابي لكنني تمالكتُ نفسي وتذكرتُ أين أنا، حاولتُ إشعال الولاعة مجددًا، وبعد محاولاتٍ مضنية اشتعلت أخيرًا، لكن ما رأيتُه جعل الدم يتجمّد في عروقي؛ رأيتُ كل ثلاجات الموتى مفتوحةً مثل أفواهٍ جائعة تخرج منها جثث الموتى!

كانت جميع الجثث ملفوفةً في الأكفان، لكن وجوهها مكشوفة؛ رجال ونساء بملامح مشوهة متجمدة. وبعد لحظاتٍ، علت أصوات الصرخات من كل زاويةٍ في المشرحة وكأنَّ الموتى يتعذبون، حتى الجثث على الطاولات بدأت تصدر أصواتًا مخيفة، كأنّها تحاول الحديث أو الاستغاثة!

تراجعتُ إلى الخلف وأنا أشاهد الجثث والأموات يستيقظون وينهضون، حركتهم كانت بطيئةً لكن المكان كان ضيقًا. أحاطوا بي من كل جانبٍ، وراحوا يتقدمون ناحيتي وهم يسيرون بحركةٍ مهزوزة مثل حركة عرائس الماريونت!

اندفعتُ أضرب بكل قوتي يمينًا ويسارًا، ضرباتي كانت

قويةً لكنها لا تؤثر فيهم، لا ألم أو إحساس مجرد عيون وأجساد باردة و... وفي تلك اللحظة، هوت ضربةٌ قويةٌ على رأسي وفقدتُ الوعي.

***

- أين أنا؟

فتحتُ عيني وأنا أشعر ببرودةٍ رهيبة تسري في جسدي!

وجدتُ نفسي مستلقيًا على ظهري وسط ظلامٍ دامس ولا أرى شيئًا، البرد شديد جدًا والمكان ضيق!

حاولتُ أن أتحرّك لكن اكتشفتُ أن يدي شبه متجمدة، بصعوبةٍ رفعتُ رأسي قليلًا وأنا أشهق فارتطمت بشيءٍ صلبٍ، أنا في مكانٍ ضيق جدًا يشبه الصندوق لكنه ليس صندوقًا.. أين أنا؟!

انفجرت الإجابة في رأسي، وعرفتُ أين أنا.. اللعنة.. أنا موجودٌ داخل ثلاجةٍ لحفظ الموتى!

بعد مدةٍ، شعرتُ بأصابع طويلة تتحسس جسدي في الظلام؛ صرختُ في ارتياعٍ:

- لاااا.. آآآه.

لكن صوتي خرج مكتومًا كأنّه أنينٌ مختنقٌ، حاولتُ أن أركل بقدمي لكن بلا فائدة، كنتُ عاجزًا عن الحركة وجسدي متجمدٌ مثل الأموات!

كم مرّ من الوقت؟ دقائق؟ ساعات؟ أيام؟ لا أدري. حرفيًا فقدتُ إحساسي بكل شيءٍ حولي وبدأ نفسي يضيق أكثر وأكثر، لكن مهلًا.. إذا كنتُ ميتًا فكيف أتنفس؟!

فجأةً، سمعتُ صوت باب الثلاجة يُفتح وسمعتُ أحدهم يقول:

- ما الذي حدث؟

وآخر يرد بصوتٍ مضطربٍ:

- زميلنا "حسين" سمع ضجةً داخل إحدى الثلاجات، وعندما فتحها وجد داخلها صديقه الدكتور "شريف".

سألتُ نفسي هل هذه هلوسات الموت، أم ماذا؟ لكن قبل أن أعثر على إجابةٍ شعرتُ بيدٍ ثقيلة تضرب وجهي، وبضوء كشافٍ يخترق عيني، ثم فقدتُ الوعي.

***

- أين أنا؟

استيقظتُ مرةً أخرى!

بالتأكيد أنقذوني وسوف أكون بخيرٍ هذه المرة، كانت الرؤية مشوشةً، وبالكاد رأيتُ شخصًا يشبه الدجالين يقف أمامي، كان عاري الصدر، وجسده مغطى بحروفٍ وطلاسم حمراء اللون، وأمامه طاولةٌ عليها شموعٌ مشتعلة تلقي بظلالها المتراقصة على الجدران!

- اللعنة.. متي سينتهي كل ذلك؟

تدريجيًا بدأت الرؤية تضح واكتشفتُ أن الدجال هو "عزام"، كان يمسك في يده قطعةَ قماشٍ مستطيلة، ثم تناول مقصًا وقطع منها قطعةً بحجم كف اليد، لفها بين أصابعه قبل أن يحضر خيطًا حريريًا، قرّبه من فمه وبدأ يتمتم بكلماتٍ

غريبة. ربط عقدةً في الخيط، ثم نفخ فيها وأكمل تمتمته، وظلّ يعقد الخيط سبع مراتٍ متتالية، ويتمتم بعد كل عقدةٍ، ثم أمسك قطعةَ القماش وبدأ يلف الخيط حولها بإحكامٍ، قبل أن يرفع صوته قائلًا:

- أقسمتُ عليكم أيتها الأرواح الروحانية العلوية والسفلية.. وخدام هذا العهد الكبير.. أن تجيبوا دعوتي وتقضوا حاجتي.. بحق العهد المأخوذ عليكم.. يا خدام هذه الأسماء أن تأتوني في التو والحال.. وكونوا عونًا لي على ما أمرتُكم به.. بحق الاسم الذي أوله (ال) وآخره (ال).

وبمجرد أن نطق آخر كلمةٍ، لمحتُ "نورا" وهي تقف في ركن الغرفة وتتابع المشهد، وعلى وجهها ابتسامةٌ هادئة جدًّا!

بعد قليلٍ، سمعتُ صوتًا يشبه الزمجرة يأتي من الظلام، فنظرتُ إلى الجهة الأخرى، وما رأيتُه جعلني أطلق صرخةَ رعبٍ لم أطلقها من قبل!

رأيتُ المسخ الشيطاني الذي شاهدتُه سابقًا لكن ملامحه كانت بشعةً أكثر من ذي قبل؛ كانت عيناه حمراوان كالجمر، ووجهه مغطى بالشعر، وأنيابه بارزة من فمه بشكلٍ مخيف!

حاولتُ أن أتحرر من القيود الخفية التي تقيدني وتمنع حركتي، لكنها كانت محاولةً بائسةً وفاشلة لدرجة أنني تمنيتُ أن ينتهي كل ذلك حتى لو بالموت!

أغمضتُ عيني..

انتظرتُ ملاك الموت، مرّ الوقت لكنه لم يأتِ، تأخر، تأخر كثيرًا، ورغم ذلك غمرني شعورٌ عجيبٌ بأني فارقتُ الحياة

ولم أعد من أهل الدنيا!

فتحتُ عيني ببطءٍ..

وجدتُ أن المشهد كله قد تبدّل..

أنا مستلقي على الأرض في المشرحة، بينما "حسين" بجواري يهزني في رفقٍ وهو يقول:

- "شريف".. "شريف".

قلت وأنا أرتجف:

- ماذا حدث؟

هتف في عصبيةٍ:

- المفترض أن أسألك أنا هذا السؤال.

- ماذا تعني؟

صاح في حدةٍ:

- كيف دخلتَ إلى الثلاجة وأغلقتَ الباب على نفسك؟!

- مستحيل أن أفعل ذلك، العكس هو ما حدث.. أنت مَن فعلتَ ذلك.

قال في اضطرابٍ:

- أقسم لك كنتُ في الطابق العلوي ولا أعرف أي شيءٍ ممّا تقول، ما حدث هو أنني سمعتُك تصرخ وحين دخلتُ المشرحة عثرتُ عليك فاقدَ الوعي داخل ثلاجة الموتى.

- هل أنت واثقٌ ممّا تقول؟

رمقني بنظرةٍ صارمةٍ ثم قال:

- ولماذا أخدعك؟ ماذا سأستفيد؟

- إذن، لا بدّ من وجود تفسير.

تنهد قائلًا:

- المهم، هل تشعر أنك بخيرٍ الآن؟

قلتُ وأنا أحاول الوقوف:

- نعم، أنا بخير.

لكن في أعماقي كنتُ أعلم أنني في أسوأ حالاتي، وأن هناك لعنةً ما قد أصابتني في مقتل.

الفصل السادس
سجين العالم السفلي

- هل لديك أي تفسيرٍ؟

سألتني "نورا" ذلك بعد أن حكيتُ لها كل ما جرى في المشرحة، كُنا نجلس في غرفتها وأمامنا الجهاز ينبض ببطءٍ كأنّه يتحدانا!

قلتُ وأنا أنهض من مكاني:

- أعتقد أن هناك شيئًا ما يمنعني من الوصول إلى "ريان"، ولن يتوقف هذا الشيء حتى أنقذه.

قالت "نورا":

- أتقصد "دميان"؟

- نعم.

سألتني في اهتمامٍ:

- وماذا تنوي أن تفعل؟

فكّرتُ قليلًا قبل أن أجيب:

- لا يوجد أمامي حلٌّ سوى أن أستمر، أشعر أنني عالقٌ في دوامةٍ من الرعب، وكما قال "ريان".. "دميان" هذا شيطانٌ ملعون.

قالت "نورا":

- أنت تعرّض نفسك للخطر.

ثم نهضت فجأةً من مكانها، وقبل أن أتمكن من فهم ما تنوي

فعله، فوجئتُ بها ترفع الجهاز عاليًا، ثم تلقيه على الأرض بقوةٍ محطمةً إيّاه إلى قطعٍ متناثرة!

صرختُ فيها:

- لماذا؟

هتفت في عصبيةٍ:

- هذا الجهاز ملعون، وكان يجب أن نتخلّص منه منذ البداية.

لم أتمالك نفسي من الغضب ورفعتُ يدي لأصفعها وأنا أقول:

- أيتها...

لكن في اللحظة الأخيرة توقفتُ وتجمدت يدي في الهواء، بينما احتقن وجه "نورا" من الصدمة كقطعةٍ من الجمر، أشحتُ بوجهي بعيدًا عنها وقلتُ:

- اللعنة.

ثم عدتُ أنظر إليها:

- أنا آسف.. لم أقصد.

تنهدت "نورا" في تعاطف ووضعت يدها على كتفي:

- صدقني أنت على وشك أن تقتل نفسك.

قلتُ في انفعالٍ:

- أنا أحاول أن أساعد روح طفلٍ مسكين.

ثم انحنيتُ على الأرض وبدأتُ أحاول تجميع الجهاز، لكن "نورا" حاولت ان تمنعني وهي تقول:

- يجب أن تعرف أن لكل إنسانٍ حدودًا، وأنت إنسانٌ ليس مطلوبًا منك أن تفعل المستحيل أو تنقذ الجميع.

وقفتْ في مواجهتها مرةً أخرى وقلتْ:

- أريد فقط إنقاذ شخصٍ واحد.

قالت في غضبٍ:

- أنت أحمق ولا تستطيع أن ترى الحقيقة.

قلتُ في إصرارٍ:

- يجب أن أساعد "ريان".

صاحت في حدةٍ:

- لماذا؟

صرختُ فيها:

- لأنني المسئول عن موته.

اتسعت عينا "نورا" من الصدمة وهتفت:

- أنت؟!

ألقيتُ نفسي على أقرب مقعدٍ وأنا أردد في مرارةٍ:

- نعم، أنا المسئول عن موته.

- لكن كيف؟!

- "ريان" كان يحتاج إلى زراعة قلبٍ، وأنا كنتُ الطبيب المسؤول عن حالته؛ بدأنا البحث عن قلبٍ مناسب، كُنا في سباقٍ مع الوقت خصوصًا أن فصيلة دمه نادرة جدًا، لكن من حسن الحظ أن الأموال لم تكن تمثل مشكلةً لأهل "ريان"؛

ولهذا استطعنا توفير القلب بعد مدةٍ بسيطة عن طريق أحد الوسطاء.

غمغمت "نورا":

- لكن شيئًا ما حدث، أليس كذلك؟

ابتلعتْ ريقي بصعوبةٍ وأنا أقول:

- قبل إجراء الجراحة بيومٍ واحد، جاء مريضٌ جديدٌ إلى المستشفى، طفلٌ حالته خطيرة ويحتاج إلى زراعة قلبٍ، المعتاد أن هناك ترتيبًا لكن ذلك الطفل كان ابن رجلٍ مهمٍ في الدولة، رجلٍ له علاقات وسلطة، وكان يجب علَيّ أن أقرر مَن سيحصل على القلب، "ريان" أم الطفل الآخر؟!

- وماذا فعلتَ؟

قلتُ بصوتٍ مختنقٍ:

- تلاعبتُ في ترتيب المرضى، وأعطيتُ القلب للطفل الآخر.

شهقت "نورا" بانفعالٍ:

- يا إلهي! وماذا حدث بعد ذلك؟

قلتُ وأنا حزينٌ:

- قام أهل "ريان" بإخراجه من المستشفى وعادوا به إلى مدينتهم "شط الغاب"، لا أعرف ماذا فعلوا بعد ذلك لكني علمتُ لاحقًا أنه مات. مات بعد أن خذلتُه وبعد أن كنتُ الأمل الوحيد له.

قالت "نورا" وهي تشعر بالشفقة:

- ولهذا أنت مصممٌ على مساعدته، أنت تعاني من تأنيب

الضمير.

قلتُ في اضطراب:

- أعتقد ذلك.

- وطبعًا اخترتَ أن تأتي إلى هنا خصيصًا لقضاء فترة علاجك، كنتَ تريد أن تعرف أين كان يعيش.

- "شط الغاب" تراودني كل يومٍ في كل أحلامي.

أمسكت يدي وقالت:

- أنت تتألم.

قلتُ وأنا أحني رأسي:

- بداخلي ألمٌ لا يراه أحدٌ لكنه موجودٌ.

- أنا أراه

رفعتُ وجهي وقلت لها:

- صدقيني.. إذا كانت هناك فرصة لأصلح ما فعلتُ فلن أتردد حتى لو كان الثمن هو نهايتي.

***

عدتُ إلى غرفتي وحاولتُ أن أرتب أفكاري خصوصًا أن وسيلة التواصل الوحيدة بيني وبين "ريان" تم تدميرها. ماذا أفعل وكيف أتواصل معه مرةً أخرى؟!

- بالتأكيد هناك حلٌ.. لكن ما هو؟

فجأةً، انتبهتُ على صوت طرقٍ خافت قادمًا من الجدار المجاور، كان الطرق بطيئًا، لكنه قويٌ وكأنّ مَن يطرقه يريدني أن أنتبه له!

سألتُ نفسي هل يمكن أن يكون هذا "ريان"؟ هل يحاول التواصل معي بعد أن تحطم الجهاز؟

نهضتُ ببطءٍ واقتربتُ من الجدار بحذرٍ شديدٍ وقلتُ:

- "ريان"؟!

بمجرد أن قلتُ ذلك فوجئتُ بالحوائط تهتز وترتجف وكأنَّ هناك شيئًا ما داخلها يريد الخروج!

- توقفْ.

قلتُ ذلك وتراجعتُ إلى الخلف، لكن لم يتوقف شيءٌ، ارتفعت أصوات الطرق أكثر وأكثر فصرختُ بكل قوتي:

- قلتُ توقفْ.

وبالفعل، توقف كل شيءٍ!

هدوءٌ مطبقٌ وسكونٌ ثقيل كأنَّ الموت نفسه يخيِّم على المكان!

بعد دقائقَ، عاد الطرق من جديدٍ لكن هذه المرة كان خافتًا مرتبكًا؛ قلتُ وأنا منهارٌ وبالكاد أجد صوتي:

- "ريان"، أعلم أنه أنت، أنا أريد أن أساعدك لكن لا أعرف كيف.

هذه المرة توقف الطرق نهائيًا!

فجأة، تبدّل كل شيءٍ من حولي، وجدتُ نفسي في شارعٍ طويلٍ، ضيق، تفوح منه رائحةٌ كريهة جدًا وكان الظلام يلف المكان، جميع البيوت غارقة في العتمة، إلا بيتًا واحدًا يتسلل منه ضوءٌ أصفر شاحب!

توجهتُ إلى هذا المنزل، ودون أن أفكّر مددتُ يدي إلى الباب، فتحتُه، ثم دخلتُ. وفور عبوري العتبة، تردد في الأرجاء صوت غناء أطفالٍ، صوتٌ غريبٌ ومريب كأنّ الكلمات تخرج من مكانٍ أبعد من هذه الجدران!

تقدمتُ بخطواتٍ مترددة، نحو مصدر الصوت حتى وصلتُ إلى غرفةٍ واسعة، سقف الغرفة مغطى بمئاتٍ من الخفافيش التي تصدر صريرًا مسموعًا، وهناك في وسط الغرفة رأيتُ "ريان" يجلس على مقعدٍ صغيرٍ ويحدّق في الفراغ!

للوهلة الأولى اعتقدتُ أنه لم يشعر بي، لكنه التفت نحوي وقال:

- "شريف".

وأشار لي أن أجلس بجانبه، لكنني بقيتُ واقفًا وقلتُ:

- كيف أحضرتني إلى هنا؟!

نهض من مكانه واتجه ناحيتي قائلًا:

- هل تخاف مني؟

هززتُ رأسي ببطءٍ وقلتُ بصوتٍ خافت:

- لا.

ابتسم ابتسامةً باهتةً وقال:

- كنتُ أعلم ذلك.

سألتُه مباشرةً:

- ماذا تريد مني يا "ريان"؟

أجاب قائلًا:

- أريد منك خدمةً؛ أنا مسجونٌ عند شيطان اسمه "دميان"، وأنت الوحيد القادر على تحريري.

- كيف؟!

قال وهو يقترب مني حتى صار وجهه قريبًا جدًا من وجهي:

- عليك أن تذهب إلى قبري، أن تقوم ببعض الطقوس، وحينها سأتحرر من اللعنة وأعود.

نظرتُ إلى عينيه، ولاحظتُ لأول مرةٍ عدم الانتظام في حركة بؤبؤ عينيه؛ فقلتُ له:

- لا أحد يعود من الموت.

- أنا لستُ ميتًا.

- إذن، ماذا تكون بالضبط؟

قال في انفعالٍ:

- أنا سجينٌ.. سجينٌ في عالم الجن.

- مستحيل.

- لا شيء مستحيل.

ثم راح يشرح لي بالتفصيل الشديد كل الطقوس التي يجب أن أقوم بها لكي أخرجه، حتى انتهى من كلامه قائلا:

- وهذا هو كل شيء.

قلتُ في اضطرابٍ:

- لكن هذه ليست طقوسًا عادية.

حدّق "ريان" نحو الظلام قبل أن يقول:

- أعلم ذلك، لكن لا يوجد خيارٌ آخر.

- سيكون الأمر صعبًا.. صعبًا للغاية.

وضع "ريان" يده على كتفي وقال:

- أنا أعتمد عليك.

فجأةً، اشتعلت النار في أرجاء المكان وارتفعت ألسنة اللهب من العدم، ثم ظهر من وسط النيران مخلوقٌ أسودا!

تراجعت إلى الوراء في ذعر وأنا أردد بلا وعي:

- يا إلهي! ما هذا الشيء؟

هتف "ريان" في خوفٍ:

- دميان

في تلك اللحظة اندفع "دميان" نحو "ريان" يريد القبض عليه وهو يصرخ:

- لن تخرج من هنا أبدًا.

صاح "ريان":

- اهربْ يا "شريف".

ثم دفعني بكل قوته بعيدًا عنه، ورغم أنه مجرد طفلٍ ومن المفترض أن يكون ضعيفًا، لكن شعرتُ بقوةٍ هائلةٍ تلقيني في الهواء فصرختُ في ارتياعٍ وأنا أسقط:

- لاااا.

وهنا تبدّل المشهد على نحو خارق وفوجئتُ بنفسي أسقط

داخل غرفتي وأرتطم بالحائط!

- اللعنة على كل هذا العبث الشيطاني.

الفصل السابع
طقوسٌ محرمةٌ

المقابر

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة ليلًا حين دخلتُ إلى هناك، الجو خانق والظلام حالك جدًا، بالكاد كنتُ أرى طريقي وأنا أتلمس خطواتي بين شواهد القبور، كل شيءٍ هادئ وميت بسلام، رغم ذلك ومن بين أطلال القبور، رأيتُ عيونًا متوهجةً من الظلام.. هل هي أعين قططٍ؟ ذئاب؟ أم شيءٌ آخر؟

بعد قليلٍ، بدأتُ أسمع أصواتًا مبهمةً، وهمسات غير مفهومةٍ تتردد في الأرجاء، تأتي من جهة تلك العيون المتوهجة.

كنتُ أشعر بالكثير والكثير من الرعب، لكن قدمي تحرّكت وتركتها تقودني رغمًا عني. أكملتُ طريقي حتى لاح لي ضوءٌ في وسط المقابر، ضوءٌ أصفر يتراقص مثل شعلة نارٍ ضخمة، تزداد اتقادًا كلما اقتربتُ منها!

اقتربتُ أكثر فرأيتُ مجموعةً من الرجال يحيطون بقبرٍ ضخم، ويدفنون أحد الموتى، بينما رجلٌ يشبه المشايخ يقول بصوتٍ جهوريٍّ:

- ادعوا لأخيكم، فإنه الآن يُسأل.

راقبتُ هذا المشهد من بعيدٍ وأنا أختبئ وراء شواهد القبور، لم يكن يهمني شيءٌ سوى الوصول إلى قبر "ريان" وإخراجه من هناك حتى لو كلّفني ذلك كل شيء. كنتُ أشعر أن هذا تعويضٌ وتكفيرٌ عن ذنب موته؛ ربما إذا أنقذتُه قد أستريح، قد

يصمت ضميري وينام أخيرًا!

انتظرتُ حتى انتهت مراسم الجنازة وأغلقوا باب التربة وانصرف الجميع، ولم يبقَ أحدٌ غيري، بحثتُ عن قبر "ريان" ولم أجد عناءً كبيرًا في العثور عليه، كان قد أخبرني أنه قرب شجرة كافور، وها هي شجرة الكافور، ولا بدّ أن هذا هو القبر!

على القبر، كانت توجد لافتةٌ رخامية كُتب عليها اسم "ريان"؛ قرأتُ الاسم وعدتُ أنظر حولي ثم تناولتُ حجرًا من على الأرض وضربتُ قفل الباب؛ توقعتُ أنه سيحتاج إلى أكثر من ضربةٍ لتحطيمه لكن ضربةً واحدةً كانت كافيةً ليتهشم ويسقط. فتحتُ باب القبر، وبمجرد أن فتحتُه هاجمتني رائحةٌ نتنة جدًا كانت محبوسةً في الداخل، وضعت يدي على وجهي لكن الرائحة كانت تخترق كل شيءٍ، أخرجتُ كشافًا من جيبي وأضأتُه بحذرٍ ثم قلتُ:

- السلام عليكم يا أهل الديار.

وتقدمتُ إلى الداخل!

في داخل القبر، شعرتُ أن الزمن غير موجودٍ. فجأةً، ارتطمت قدمي بشيءٍ ما فترنحتُ إلى الخلف وأنا أحرّك ذراعي لأستعيد توازني، حتى تمكنتُ من الثبات ثم التفتُ لألقي نظرةً على ما ارتطمتُ به؛ كانت جمجمةً رماديةً مدفونةً وسط التراب، لكن ما لفت نظري أن الجمجمة كانت بكامل أسنانها المصنوعة من الذهب الذي يضيء!

تراجعتُ للوراء وبحثتُ بعيني في كل اتجاهٍ، كانت هناك أكثر من جثةٍ لكن استطعتُ تمييز جثة "ريان" بسهولةٍ بسبب حجمها الصغير. اقتربتُ منها ببطءٍ، ومددتُ يدي المرتجفة

نحو الكفن وبدأتُ في إزاحته.

رفعتُ الجثة وأسندتُها على جدار القبر؛ شعرتُ أن هناك شيئًا آخر موجودًا معي، شيئًا لا أستطيع رؤيته لكنه موجود، وتخيلتُ أن عيون الأموات تحدّق بي، وتحيطني من كل جانب. أقسم أنني سمعتُ أنينًا مرعبًا وأشخاصًا يتحرّكون في الظلام، لكن المرعب أكثر هو أن جثة "ريان" فتحت عينيها فجأةً!

***

الموقف كان مرعبًا لأقصى درجة، وكاد قلبي أن يتوقف خصوصًا أن وجه "ريان" تحوّل إلى وجهٍ شيطانيٍّ بكل معنى الكلمة، وجهٍ أسود كالفحم، عيناه بيضاء تمامًا!

فكّرتُ أن أهرب لكن "ريان" أخرج يده ببطءٍ من الكفن وتحرّكت أصابعه الطويلة ثم أشار إلى شيءٍ ما خلفي!

- لا أريد أن أنظر.. بالتأكيد شيءٌ مخيف.

حاولتُ أن أمنع نفسي من النظر لكن لم أستطع المقاومة؛ رعبي كان أقوى من إرادتي.

التفتُ ببطءٍ.. وعندما رأيتُ ما كان يشير إليه "ريان" تمنيتُ لو أنني لم أنظر أبدًا.. رأيتُ جثتي!

نعم، رأيتُ جثتي كانت ملفوفةً بالكفن الأبيض، وتجلس على الناحية الأخرى ترفع يدها نحوي كأنّها تريد أن تمسكني، أو أن أمسكها!

لم أكن أفهم، لم أكن أستوعب؛ كيف أكون هنا وهناك في نفس الوقت؟ كيف يكون هذا وجهي وكيف تتحرّك جثتي

دون أن تصدر صوتًا؟ كانت شفتاها تتحرّكان، تحاول الصراخ، لكن لا صوت يخرج، أنا فقط أسمعه في عقلي!

- تبًا لكل ذلك.. أريد أن أنتهى.

تحّركتُ سريعًا وقد عزمتُ على إنهاء ما جئتُ من أجله، كنتُ أعلم أنني محاصرٌ داخل القبر، ولا خيار أمامي سوى الاستمرار. اقتربتُ من جثة "ريان"، عيناه كانتا تحدّقان في وجهي بطريقةٍ بشعة، حاولتُ فتح فمه، لكنه كان متيبسًا تمامًا، أخرجتُ سكينًا صغيرةً ووضعتُها بين أسنانه، ثم ضغطتُ بقوةٍ حتى سمعتُ صوت طقطقةٍ وكسر عظام الفك، كانت لحظةً مخيفةً لكن لا مجال للتراجع، يجب أن أقوم بتنفيذ الطقوس حتى النهاية.

أخرجتُ زجاجةً بها دماء طازجة استخرجتها من عروقي، فتحتُها ثم وضعتُها في فم "ريان" المتيبس بعد أن أسندتُه إلى ساقي حتى يتدفق الدم بداخله، راقبتُ الدم وهو ينساب ببطءٍ، حتى انتفضت الجثة قليلًا ثم هدأت تمامًا، لكن الرعب لم يكن قد انتهى بعد، بدا الدود يزحف على يدي!

أزحتُ الدود بصعوبةٍ وأنا أحاول السيطرة على إحساسي بالاشمئزاز ثم زحفتُ إلى الخلف وجلستُ. كنت أعلم أن الطقوس لم تنتهي، يجب أن أظل داخل المقبرة حتى طلوع الفجر، لا أعرف سر ذلك!

أسندتُ ظهري إلى جدار القبر، ودفنتُ رأسي بين ركبتي، وأنا أحاول أن أجد لحظة هدوءٍ وسلامٍ وسط هذا الجحيم، لكن بالتأكيد الهدوء والسلام لا مكان له هنا.

تدريجيًا بدأتُ أسمع أصواتًا غريبةً، أصوات صراخٍ وعويلًا

كأنّها صادرةٌ من أعماق الجحيم، أصوات ضحكاتٍ مشوهة وأشخاصًا يعانون من عذاب القبر.

كل ذلك كان يحدث وأنا أحاول ألا أفتح عيني، أريد للوقت أن يمضي لكنه كان بطيئًا.. بطيئًا جدًا!

بعد مدة شعرتُ بشيءٍ يتحرّك ويقترب مني، أنا في مقبرةٍ ومن المفترض أنه لا يوجد سوى الأموات!

فتحتُ عيني وحرّكتُ الكشاف المرتجف في يدي، الظلام يتحرّك، أدرتُ الكشاف نحو الجانب الآخر، رأيتُ كفنًا في زاوية القبر، هذا الكفن لم يكن موجودًا حين دخلتُ، أنا واثقٌ من ذلك.

بعد قليلٍ، راح هذا الكفن يهتز كأنّ الميت الذي بداخله يحاول تمزيق الكفن والخروج، ثم ظهرت عشرات الكائنات الصغيرة، خرجت من العدم كائنات قصيرة أشبه بالقرود لكن بلا شعر، أجسادها رمادية، وأذرعها طويلة تصل إلى الأرض، عيونها حمراء متوهجة، وأسنانها طويلة وحادة كالإبر، تحرّكوا حولي بحركاتٍ عشوائية، ظلوا يركضون، يقفزون، يزحفون.. وأيضًا يرقصون!

كانت حفلةً من الهوس والجنون؛ كل شيءٍ يدور من حولي بلا توقف، ألف مرةٍ شعرتُ أنني متُ وعدتُ إلى الحياة، ألف مرةٍ سمعتُ أصواتًا تلعنني.

وأخيرًا سكن كل شيءٍ؛ الضوضاء اختفت، الصرخات تلاشت، حتى أنفاسي شعرتُ بها معلقةً في الهواء.. لكن فجأةً، تحرّكت جثة "ريان" وجلست بجواري!

حاولتُ أن أبتعد عنها لكنها في لحظة أمسكت بي وأطلقت صرخةً مريعةً، صرخةً لم أسمع مثلها في حياتي كأنّ كل الأرواح المعذبة اجتمعت في صرخةٍ واحدة. وفي اللحظة التالية، خرج من بين أسنان الجثة دخانٌ أسود كثيف وأخذ يتشكّل أمامي، تحوّل الدخان إلى ماردٍ أسود، له قرونٌ بارزة معقوفة، شعره كثيفٌ يتدلى فوق كتفيه، لكن بقية جسده خالٍ تمامًا من الشعر، جلده داكنٌ خشن، وقدماه مثل أقدام الجِمال، يداه غير بشريتين، كل كفٍّ يحوي ثلاثة أصابع طويلة، وأظافر كالسكاكين ممتدة، حادة، تبدو كأنّها خُلقت للتمزيق!

عندما اكتمل تجسّد هذا المخلوق، كدتُ أفقد وعيي من هول المنظر، تراجعتُ بظهري وأنا أقول لنفسي:

- لا.. لا شيء من هذا حقيقي، كل هذه أوهام وهلوسة، الهواء الفاسد هو السبب، نعم، أنا أعيش هلوسةً مرعبة.

وهنا، تحدّث المخلوق الذي ظهر أمامي بصوتٍ جعل الأرض تهتز من تحتي:

- اسجد.

فكّرتُ أن أقول له لا، لكنه صرخ كأنّه قرأ أفكاري:

- أنا "دميان"، ولقد أمرتُك أن تسجد، لا تعصِ أمري وإلا كان هذا هو يوم هلاكك.

قلت بلا وعي:

- يوم هلاكي!

ثم ضحكتُ للحظةٍ، ضحكتُ بجنونٍ وجدتُ أن الأمر خرج

من نطاق الهلوسة الطبيعية، أنا أعيش مستوًى جديدًا من الهلوسة، مستوًى فاخرًا للغاية. صرخت:

- هذا هو الجنون أيها المسخ.

في تلك اللحظة، بدأت الكائنات الصغيرة هي أيضًا تصاب بالجنون؛ تتخبط مثل كرات البلياردو، تهرب في كل اتجاهٍ، وكلما لمست جدران المقبرة احترقت وتبخرت. أمّا "دميان" فقد راح جسده يتحوّل من جديدٍ إلى دخانٍ وغاص تحت الأرض، صرخت فيه وأنا أحاول اللحاق به:

- اللعنة.. عُد إلى هنا.

ثم سمعت أذان الفجر.

***

خرجت من القبر أخيرًا، وحين خرجت، رأيت كلبًا ضخمًا، أسود اللون، يجلس عند مدخل القبر، عيناه متقدتان بالنار ويراقبني بصمتٍ!

قلت وأنا أمسح التراب من على وجهي:

- ماذا تريد أنت أيضًا؟

نبح في وجهي بقوةٍ ثم نزل من فوق القبر وسار بعيدًا، وسمعته يقول لي:

- لقد انتهى الأمر.. هيّا ارحل.

قلت وأنا أتحرّك:

- بالتأكيد أنا ما زلت أعيش نفس الهلوسة.

عدت إلى المنزل، ودخلت إلى غرفتي مباشرةً، كنت أشعر

بتعبٍ هائل، أغلقتُ النوافذ، وأسدلتُ الستائر وغرقت الغرفة في الظلام، ثم ألقيتُ نفسي على الأرض.

جسدي بالكامل كان يرتجف، ويدي اليُسرى شعرتُ بها وكأنّها تفقد الإحساس تدريجيًا، تنميل رهيب بدأ يمتد حتى صدري؛ هل هذه هي سكرات الموت؟ لماذا أصلًا يطلقون عليها سكرات الموت؟

مرّ وقتٌ طويلٌ لا أعرف إذا كنتُ نائمًا أم ميتًا قبل أن اسمع صوتًا ينادي:

- "شريف".. "شريف".

الصوت ليس غريبًا!

صوت "ريان"!

كان واضحًا وقريبًا جدًّا!

فتحتُ عيني ببطءٍ، وجدتُ نفسي في غرفتي وكل شيءٍ طبيعي جدًّا، ضوء الشمس يتسلل من النافذة، الهواء نقيٌ ونظيف!

سألتُ نفسي: هل كنتُ أحلم؟ هل ما مررتُ به كان مجرد كابوس؟

- "شريف".. "شريف".

عاد صوت "ريان" يناديني مجددًا!

انتفضتُ من مكاني، ونهضتُ واقفًا، ركضتُ بسرعةٍ إلى الصالة وأنا أصرخ:

- مَن ينادي؟

وهناك رأيته؛ رأيتُ "ريان" يقف أمامي بوضوحٍ سليم الجسد والصحة، قال وهو يبتسم:

- تبدو وكأنّك رأيتَ شبحًا!

اقتربتُ منه وقلتُ في ذهولٍ وأنا أتحسس وجهه:

- "ريان"!

ثم احتضنته بكل قوتي، لقد نجحتُ، لقد أعدتُ "ريان" من الموت.

الفصل الثامن

العائد

كان من المفترض أن أشعر بالراحة.

الليل يا ليلى يعاتبني.

ويقول لي سلِّم على ليلى.

كنتُ أجلس مع "نورا" نستمع سويًا إلى أغاني "وديع الصافي" القديمة، حالة جميلة كفيلة أن تجعلني أسترخي لكن التفكير كان ينهشني من الداخل، قلتُ وأنا أغمض عيني:

- من الغريب أن يستمع المرء إلى أغنيةٍ تمّ غناؤها قبل ولادته ويستمتع بها، أليس كذلك؟

أحابت "نورا":

- أجل.. خصوصا إذا كانت نابعة من القلب.

الحب لا تحلو نسائمه.

إلا إذا غنى الهوى ليلى.

سألتني "نورا":

- كم تبلغ من العمر؟

- ست وثلاثون سنةً.

- تكبرني بعشر سنوات.

- وبالتالي؟

- بالتالي لا شيء، مجرد فضول.

قلتُ لها بجديةٍ وأنا أطفئ الموسيقى:

- أريد أن أتحدّث معك.

بدأتُ أحكي لها تفاصيل ما جرى في المقابر وليلة الفزع التي عشتُها، وحين انتهيتُ، قالت لي وهي تعقد يديها على صدرها:

- أحداثٌ كثيرة.

- نعم، كثيرة ومرعبة.

- الغريب أنك استطعتَ تجاوز كل ذلك.

حاولتُ أن أبتسم وأنا أقول:

- يبدو أنني أمتلك قدراتٍ مذهلة.

بادلتني الابتسامة:

- أو مجنون يعيش في نعيم الجهل.

- ارحميني.

كتمت "نورا" ضحكتها ثم قالت:

- وأين "ريان" الآن؟

- نائم في غرفتي.

حدّقت "نورا" في وجهي، ثم قالت:

- أريد أن أقابله.

فكّرتُ قليلا قبل أن أقول لها:

- أعتقد من الأفضل تأجيل ذلك.

- حسنًا، وماذا بعد؟

قلتُ في حيرةٍ:

- لا أفهم؟

قالت "نورا" بانفعالٍ:

- أقصد ماذا تنوي أن تفعل مع "ريان"؟ لا بدّ أن تتواصل مع أهله.

- تلك هي المشكلة؛ "ريان" لا يريد.

ضيّقت "نورا" ما بين عينيها ثم قالت:

- ألا تجد هذا غير منطقيٍ؟

لوّحتُ بيدي:

- أجل.. أجل.. لكن لا يوجد شيءٌ منطقيٌ أصلًا منذ البداية.

قالت في توتر:

- أشعر أنك قد اتخذتَ قرارك؟

- نعم، سوف أتبنى "ريان".

حدّقت "نورا" في وجهي بدهشةٍ وهي تقول:

- ستجعله يعيش معك؟

- إنه بالفعل يعيش معي الآن، ومع ذلك لا أكتمك القول أنني أشعر أن هناك شيئًا ملعونًا يطارده أو...

أكملت "نورا" كلامي قائلة:

- أو ربما شيءٌ عاد معه من الموت.

***

بعد هذا اليوم، فكّرتُ أنه من الأفضل أن أبتعد عن "نورا" تلك الفترة حتى تتضح لي الصورة جيدًا. بحثتُ في نطاق

المنطقة وقمتُ باستئجار منزلٍ آخر، وانتقلت إليه أنا و"ريان" الذي كان متعاونًا إلى أقصى درجةٍ ومطيعًا. الغريب أنه كان لا يتذكّر أي شيءٍ ممّا حدث، ذاكرته كانت متوقفةً عند الأحداث الأخيرة في المستشفى.

عندما انتقلنا للمنزل الجديد، فوجئتُ به يطلب مني أن ينام معي في غرفتي؛ لأنه يشعر بالخوف، وافقتُ على الفور نمنا سويًا على نفس السرير وكانت ليلةً غريبةً بحقٍّ، بمجرد أن أغمضتُ عيني، وجدتُ نفسي عالقًا في كوابيس لا تنتهي. رأيتُ نفسي في مكانٍ مهجورٍ، لا أثر للحياة فيه سوى أطلالٍ، بينما "ريان" يقف بجانبي شاحب الوجه ويبتسم ابتسامةً غامضةً مرعبة!

كان يوجد أمامنا قبرٌ مفتوحٌ وفي داخله جثةٌ منتفخة البطن، تحيط بها أكفانٌ ممزقة متناثرة كأنّها بقايا طقوسٍ شيطانية!

كنتُ أعلم أن هذا مجرد كابوس؛ ولهذا لم أكن أشعر بالرعب. لكن فجأةً، ودون سابق إنذارٍ، دفعني "ريان" إلى داخل القبر، فحاولتُ أن أتشبث بأي شيءٍ، لكن سقطتُ مباشرةً فوق الجثة ووجهها التصق بوجهي تمامًا.

اندفعتُ وحاولتُ أن أنهض، لكن كلما دفعتُ جسدي بعيدًا عن الجثة كنتُ أسقط فوقها مرةً أخرى كأنّ هناك قوةً خفيةً تمنعني من الهرب، وتجعلني التصق بها، ولسببٍ ما وجدتُ نفسي أحدّق في وجه الجثة، انتابني شعورٌ لا يُطاق بأن عينيها ستفتحان في أي لحظةٍ. نعم، هذا ما يجب أن يحدث، سوف تفتح الجثة عينيها وتصرخ في وجهي، شاهدتُ ذلك

في أفلام رعبٍ كثيرة.

لكن ذلك لم يحدث.

الذي حدث كان أكثر رعبًا.

رأيتُ فم الجثة ينفرج على مصراعيه، ومنه انبعث رمادٌ أسود كثيف مثل دخانٍ خبيث، رائحته تشبه الموت نفسه، اجتاح وجهي ورقبتي، وشعرتُ بحرارته تخترق أنفاسي:

- اللعنة! لم أعد قادرًا على التحمل.

صرختُ بكل ما أُوتيتُ من قوةٍ:

- أريد أن أستيقظ.

ومع صرختي عدت إلى الواقع ووجدتُ نفسي مستلقيًا على ظهري، أحدّق في سقف الغرفة، وأنا أتنفس بصعوبةٍ وكأنّني خرجتُ من أعماق كابوسٍ حيٍّ، لكن في جزءٍ من الثانية أدركتُ أن هناك شيئًا ليس على ما يُرام. هناك رائحة نفاذة وخانقة تملأ الغرفة، رائحة لا تخطئها الأنف.. رائحة المقابر والجثث المتحللة، حاولتُ أن أتجاهل تلك الرائحة وأقنعتُ نفسي بأنها مجرد وهم، لكن عندما التفتُ إلى جانبي على السرير حيث يُفترض أن يكون "ريان"، تجمّد الدم في عروقي؛ "ريان" لم يكن هناك، كان مكانه شيءٌ آخر.. كانت جثة!

الجثة التي رأيتُها في الحُلم كانت ممددةً بجانبي، وبطنها المنتفخ يرتفع وينخفض بطريقةٍ غير طبيعية، وكأنّ شيئًا بداخلها يتحرّك، يستعد للانفجار. أمّا فمها، فلم يتوقف عن نفث ذلك الرماد الأسود الذي ما زال يتطاير في الهواء!

أغمضتُ عيني للحظةٍ، وحين فتحتُها رأيت "ريان" هناك نائمًا مكانه ولا أثر للجثة أو للرماد كأنّ ما حدث مجرد جزءٍ ثانٍ من الكابوس على أرض الواقع!

حاولتُ العودة للنوم، لكن جسدي كله كان يرتعش خصوصًا حين فتحتُ كفي ووجدتُ كومةً صغيرةً من الرماد الأسود في راحة يدي!

لمستُ وجه "ريان"؛ لأتأكّد من وجوده، فاستيقظ ونظر إليّ بعينين تائهتين وقال:

- أنا خائفٌ.

ثم استدار ولفّ جسده بالغطاء كأنّه يريد الهروب من شيءٍ ما وقال بصوت خافت:

- أريد أن أعود.

سألتُه في اضطرابٍ:

- تعود إلى أين؟

لكنه لم يرد، وظلّ سؤالي حائرًا بلا إجابة!

***

مرت الأيام..

خلال تلك الفترة كان "ريان" يتصرف بطريقةٍ طبيعية، وينفذ كل ما أطلبه منه دون اعتراضٍ، لكن في الليل، وحين نكون وحدنا في الغرفة، كنتُ أراه يجلس على سريره ينظر إلى الحائط، لا يتحرّك لا يرمش ثم بدأ يهمس، لم يكن يكلّم نفسه، بل كان يكلّم الحائط بصوتٍ منخفضٍ مبحوح، كان

يكرر نفس الجملة، مرةً تلو الأخرى دون توقف:

- أرجعوني حالًا.. أرجعوني حالًا.

الغريب أنه بعد تكراره لتلك الكلمات كان ينام مباشرةً!

في الصباح، وعندما أسأله عمّا قاله وأحاول أن أوصل إلى تفسيرٍ، كان ينظر لي ببراءةٍ حقيقية، ويؤكّد أنه لا يتذكّر أي شيءٍ على الإطلاق!

- أريد غرفةً خاصةً بي.

طلب مني "ريان" ذلك فلم أعترض؛ ووجدتُها فرصةً مناسبةً خصوصًا أنني أردتُ أن أمنحه المزيد من الراحة.

وبالفعل، قمتُ بتجهيز غرفةٍ صغيرة له، في مواجهة غرفتي مباشرةً، شعرتُ بالارتياح لأن "ريان" أصبح لديه مساحته الخاصة لكن في إحدى الليالي، حدث شيءٌ غريب جدًّا!

في تلك الليلة، انتبهتُ على صوت حركةٍ خافتة في المنزل، ووقْع خطواتٍ تتسلل في الصالة؛ نهضتُ بحذرٍ وخرجتُ لأعرف مَن يتحرّك. رأيتُ "ريان" يسير ببطءٍ على أطراف أصابعه، كأنّه يحاول ألّا يحدث ضجيجًا!

وقفتُ أراقبه دون أن يلمحني؛ فوجدتُه يتجه عند أكبر نافذةٍ في المنزل ثم فتحها بحذرٍ، رفع رأسه إلى السماء كأنّه ينظر إلى شيءٍ غير مرئيٍّ قبل أن يقول بصوتٍ خافت لكنه واضح:

- نعم، سوف أفعل كل ما تأمر به.

سألتُ نفسي:

- مَن الذي يتحدّث إليه؟

اقتربتُ من "ريان" لكنه شعر بوجودي، فاستدار نحوي في هدوءٍ وقال لي:

- "شريف"، تعال قف معي، الجو في الليل جميل جدًا.

كان صوته طبيعيٌ هادئ خالٍ من التوتر، لكنه لم يكن وحده منذ لحظاتٍ، أنا متأكّد أنه كان يكلّم أحدًا، سألتُه مباشرةً لأقطع الشك باليقين:

- كنتَ تتحدث مع شخصٍ ما. أليس كذلك؟

هزّ رأسه وأجاب ببساطةٍ:

- لا.. طبعًا لا.

كان يتحدّث بتلقائيةٍ وصدقٍ جعل الشك يتسلل إلى عقلي، ربما تخيلتُ الأمر؟ ربما كنتُ أنا المخطئ؟ ترددتُ قليلًا ثم قلتُ له:

- أنا أُصدقك. والآن، عُد إلى غرفتك.

أومأ برأسه ودخل إلى غرفته دون اعتراضٍ وهو يقول:

- أراك إذن في الصباح الباكر.

عُدتُ إلى غرفتي وأغلقتُ الباب، مرت نصف ساعةٍ ثم سمعتُ مرة أخرى صوت حركةٍ خافتة في المنزل!

كدت أن أنهض لأعرف مصدر هذا الصوت، لكن فجأةً اقتحم "ريان" غرفتي، لم يطرق الباب، لم يستأذن، فقط دخل وجلس بجانبي على السرير، وعيناه زائغتان مثل شخصٍ ضائعٍ؛ قلتُ له وأنا أضع يدي على كتفه:

- "ريان"، هل أنت بخير؟

كان يرتجف ويردد جملةً واحدةً، بصوتٍ منخفضٍ لكنه متواصل كأنّه مسجل معطوب لا يستطيع التوقف:

- لا يمكنه العيش هنا.

قلتُ في عصبيةٍ:

- مَن هو؟

عاد يقول كأنّه لم يسمعني:

- لا يمكنه العيش هنا.

صرختُ فيه:

- "ريان"، استيقظْ.

اتسعت عيناه في تلك اللحظة وكأنّ كلامي أيقظه من غيبوبته، ثم انتفض وصاح كأنّه شخصٌ آخر تمامًا:

- أنا لن أعود إلى القبر.

ثم اندفع خارج الغرفة، وأغلق الباب خلفه بعنف!

فكّرتُ أن أذهب وراءه، لكن قررتُ أن أحاول النوم حتى تنتهي تلك الليلة التي تبدو وكأنّها بلا نهاية. جلستُ في سريري، وبعد مرور بعض الوقت بدأتُ أشعر ببرودةٍ غريبة، ظللتُ أحدّق في الباب، لديّ إحساس أن "ريان" هناك يقف في الخارج. ناديتُ عليه:

- "ريان"، هل ما زلتَ هناك؟

لم أسمع ردًا، لكن سمعتُ صوت خطواتٍ تتحرّك خلف الباب، تأكدتُ الآن أن إحساسي صحيحٌ خصوصًا حين رأيتُ

ظله.. "ريان" لم يغادر مباشرةً بعد أن أغلق الباب بل هو هناك يراقبني!

وببطءٍ بدأ مقبض الباب يتحرّك، ناديتُ:

- "ريان"، ادخلْ.

دخل "ريان" وهذه المرة كانت ملامحه باردةً خاليةً من أي تعبيرٍ مجرد نظرة فارغة كأنّه دُمية بلا روح، اقترب مني بهدوءٍ وقال:

- تعال معي إلى غرفتي، أريد أن أريك شيئًا.

قلتُ بغضبٍ:

- وما هو هذا الشيء؟

لكنه لم يجب، فقط استدار ومشي بخطواتٍ ثابتة باتجاه غرفته!

فكّرتُ أنه قد يكون يسير وهو نائم، ربما هذا تفسيرٌ منطقيٌ أكثر، لكن فضولي تغلّب علَيّ؛ فنهضتُ من مكاني ومشيتُ خلفه.

استمر "ريان" في المشي حتى وصل إلى غرفته، ثم فتح الباب وأشار لي، تقدمتُ بحذرٍ، ونظرتُ إلى حيث كان يشير؛ الغرفة كانت شبه مظلمةٍ، ورغم ذلك شاهدتُ شيئًا جعل الدماء تتجمّد في عروقي، شاهدت "ريان" مستلقيًا على سريره، ممددًا على ظهره، وعيناه شاخصتان إلى السقف!

للحظةٍ لم أستطع التنفس وشعرتُ ببرودةٍ حادة تضرب عمودي الفقري، بدأتُ أنقل بصري بين هذا وذاك، هناك اثنان من "ريان"، أحدهما نائمٌ على السرير، والآخر يقف بجواري!

أيهما الحقيقي؟!

سؤالٌ لا محل له من الإعراب، ومستنقعٌ مظلم بلا قاع!

التفتُ ببطءٍ إلى "ريان" الذي بجانبي، كان ينظر لي بثباتٍ شديدٍ، ثم فجأةً ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ خبيثة جدا وتلاشى في الهواء.

***

استعذتُ بالله من الشيطان الرجيم، وقررتُ أن أدخل الغرفة لأتأكّد من وجود "ريان" الحقيقي. صحيحٌ أنا أراه نائمًا أمامي، لكن لم أعد أصدق ما تراه عيناي، تقدمتُ خطوةً واحدةً وفي الخطوة الثانية فوجئتُ به يقف أمامي، لا أعرف كيف نهض وتحرّك بتلك السرعة المستحيلة، حدق في وجهي قائلًا:

- هل تحتاج إلى شيءٍ؟

- أنا.. أنا...

- أنت ماذا؟

- في الحقيقة.. جئتُ فقط لأطمئن عليك.

- أطمئن.. أنا بخير.

حاولتُ النظر داخل غرفته مرةً أخرى، لكن الظلام كان كثيفًا ولم يكن هناك أي ضوءٍ سوى العتمة الخانقة التي تبتلع الغرفة. لاحظ "ريان" نظراتي المتفحصة، فسألني بنبرةٍ حادة:

- هل هناك شيءٌ آخر؟

تظاهرتُ بالثبات وأجبتُ سريعًا:

- نعم، هناك كتابٌ أعتقد أنني نسيتُه عندك، سأدخل لآخذه.

لكن قبل أن أخطو، رفع يده ليستوقفني وقال بصوتٍ هادئ لكنه يحمل نبرةً صارمةً:

- انتظز هنا دقيقة، لو سمحت.

ثم استدار ودخل غرفته!

انتظرتُ في الخارج، وعيناي تحاولان اختراق الظلام الذي يبتلع الداخل. بعد لحظاتٍ خرج وهو يمسك بالكتاب، ثم ناولني إيّاه قائلًا:

- تفضّل، وأرجوك، لا تحاول دخول غرفتي ليلًا دون إذني مرةً أخرى.

كلماته كانت تحمل تحذيرًا صريحًا، كان بإمكاني الرد عليه، وإخباره أن هذا منزلي، وأنه هو الضيف هنا، لكنني فضّلتُ الصمت وتجنب المواجهة.

أخذتُ الكتاب وعدتُ إلى غرفتي، ألقيتُ بنفسي على السرير، وأغمضتُ عيني محاولًا النوم لكن بعد مدةٍ انتبهتُ على صوتٍ مرتفعٍ، قلتُ وأنا أنهض:

- اللعنة جدًا.

خرجتُ من غرفتي وأخذتُ أتبع الصوت حتى وصلتُ كالعادة عند غرفة "ريان"!

اقتربتُ أكثر، وبدأتُ أسمع بوضوحٍ؛ سمعتُ "ريان" يتحدّث بصوتٍ خافت، كأنّه يكلّم شخصًا آخر داخل الغرفة، وهذا الشخص أو الشيء يرد عليه بغضبٍ!

أصغيتُ السمع أكثر، الصوت كان خشنًا ثقيلًا وكأنّه يصدر من جوف بئرٍ عميقٍ؛ دفعتُ باب الغرفة بقوةٍ ودخلتُ، فوجئتُ

أن "ريان" يجلس على الأرض، ظهره لي، وعيناه مثبتتان على الحائط أمامه. ورغم الظلام، شعرتُ أن هناك شيئًا ما يتحرّك هناك قبل أن يتلاشى ببطءٍ داخل العتمة!

التفت "ريان" نحوي ولمعت عيناه بالغضب وهو يقول:

- اخرج من هنا.

نظرتُ إلى كل ركنٍ في الغرفة، بحثتُ عن أي شخصٍ آخر، لكن لم يكن هناك أحدا!

سألتُ "ريان" بقلقٍ:

- مع مَن كنتَ تتحدّث؟

لم يرد على سؤالي، وزادت حدة غضبه كثيرا، قبل أن يصيح في وجهي:

- اخرج فورًا.

كدتُ أن أصفعه لكن تمالكتُ أعصابي وقلتُ:

- حسنًا، سأخرج هذه المرة، لكن أعدك أنه إذا تكررت تلك الأمور العجيبة فسوف يكون لي تصرفٌ آخر.

ثم استدرتُ وأغلقتُ الباب خلفي، عدتُ إلى غرفتي وبقيتُ مستيقظًا طوال الليل وحتى طلوع الشمس. ومع طلوع الشمس، انتهت تلك الليلة الطويلة.

***

خرجت من المنزل وذهبت للقاء "نورا"، جلستُ معها دون أن أتكلم؛ كان لديّ الكثير لأقوله لها، لاحظتُ أنها على عكس كل المرات السابقة التي جلسنا فيها سويًا؛ كانت في كامل زينتها

كأنّها ذاهبة إلى موعد غرامي، ترتدي قبعةً رماديةً وفستانًا قصيرًا حجمه مناسب يبرز مفاتن جسدها، سألتها في فضولٍ:

- مَن سعيد الحظ؟

ضحكت ثم قالت وهي تسحب خصلةً من شعرها الملوّن المنسدل على كتفيها وتضعها خلف أذنيها:

- أبدًا، ليس بالضرورة أن أتأنق لأجذب أحدًا، هذه طبيعة الأنثى يا عزيزي.

- ولا حتى أنا؟

هزت كتفيها وقالت في عنادٍ ظريف:

- خصوصًا أنت.

قلتُ وأنا أتصنع النهوض:

- إذن، سوف أخرج من هنا لأحفظ كرامتي.

عادت تضحك:

- انتظر.. انتظر.. أرجوك سامحني.

عدتُ أجلس وأنا أقول في مرحٍ:

- فقط هذه المرة.

- بالمناسبة لقد أوشكتُ على الانتهاء من كتابة الجزء الأول من الرواية الجديدة.

- أنتِ تخططين لأكثر من جزءٍ؟

أومأت برأسها:

- على الأقل ثلاثة أجزاء.

- خبزٌ رائع، ينبغي أن نحتفل إذن.

ابتسمتْ وهي تقول:

- أنا لا أحتفل إلا مع كلمة النهاية.

ثم أدارت دفة الحديث وسألتني:

- والآن، دعنا نتحدّث في الأهم، لماذا دخلتَ إلى غرفة "ريان"؟

نظرتُ إليها في دهشةٍ وقلتُ لها:

- وكيف عرفتِ؟

أمالت رأسها قليلًا كأنّها تزن كلامها، ثم قالت:

- عيناكَ تفضحانك.

أشحتُ بوجهي بعيدًا عنها، وقلتُ في اضطرابٍ:

- لا، لم أرَ شيئًا.

لكنها لم تبتلع كذبي بهذه السهولة، وقالت:

- الغرفة لم تكن فارغةً، أليس كذلك؟

حدّقتُ في وجهها وسألتُها:

- ما الذي تحاولين قوله؟

قالت بصوتٍ هادئ:

- أريد منك أن تعترف.. ماذا رأيتَ هناك؟

لم أستطع الكذب مجددًا، وقلتُ باقتضابٍ:

- أشياء.

ضيّقت عينيها وكأنّها تحاول أن ترى ما في داخلي، ثم

قالت:

- هذه ليست إجابةً عن سؤالي.

عرفتُ أنها فهمت كل شيءٍ، لم يكن هناك فائدة من الإنكار، قلتُ لها مبررًا:

- لم أكن أريد أن أخيفك.

وحكيتُ لها كل شيءٍ بالتفصيل، وحين انتهيتُ قالت وهي تعقد ساعديها أمام صدرها:

- كل إشارات الخطر تتجه نحو "ريان".

قلتُ في استسلامٍ:

- نعم.. أعلم.

ثم نهضتُ من مكاني وأنا أضيف:

- لكن ربما يكون "ريان" غير مسئولٍ عن كل ذلك.

- احتمال.

نظرتُ إليها:

- أحتاج أن أعرف لماذا تم دفنه بتلك الطريقة؟ ولماذا عاد؟ أحتاج إلى الحقيقة وحسب.

نهضت هي أيضًا وقالت:

- أتعلم أنني قد فكّرتُ لوهلةٍ أن يكون "ريان" ابن أحد الروحانيين المعروفين.

- ولنفترض أن كلامك صحيحٌ، فيما يفيد ذلك؟

أجابت قائلةً:

- أحيانًا الجن والشياطين يقومون باختطاف أبناء الروحانيين انتقامًا منهم.

- هل أنتِ متأكّدة؟

- لا، لستُ متأكّدةً من أي شيءٍ.

قلتُ في انفعالٍ وأنا أشير حولنا:

- لكن أنا متأكّد.. متأكّد أن هناك شيئًا ما يستمع إلينا في تلك اللحظة.

***

عدتُ إلى المنزل..

وجدتُ "ريان" يجلس في غرفة المعيشة، يشاهد التلفاز وبجواره كوبٌ كبيرٌ من الحليب، كان يتصرف وكأنّ شيئًا لم يحدث ليلة البارحة. وقفتُ بجواره بصمتٍ، أراقبه دون أن أنبس بكلمة. مرت دقيقتان من الصمت الثقيل، قبل أن يلتفت إليّ "ريان" أخيرًا، ثم قال بصوتٍ خافت:

- لا تقل لي أنك ما زلتَ مستاءً ممّا حدث البارحة، أنا فقط أحب أن أحتفظ بخصوصيتي.

أجبتُه بلهجةٍ غير مبالية، لكن في داخلي كان هناك ألف سؤال:

- لا، لا شيء، فقط كنتُ أسمع صوت شخصٍ آخر معك.

ابتسم ابتسامةً باهتةً، ثم ضحك بخفةٍ وقال:

- أنا أحب تقليد الأصوات، ربما سمعتني وأنا أغيّر نبرة صوتي.

كلامه لم يكن مقنعًا على الإطلاق، كنتُ متأكّدًا من أن الصوت الذي سمعتُه لا يمكن أن يكون صوته.. كان صوتًا عميقًا، خشنًا، ثقيلًا بطريقةٍ لا يمكن أن تخرج من حنجرة طفلٍ صغير.

اتجهتُ إلى المطبخ، وشرعتُ في تحضير بعض القهوة. بعد قليلٍ، انطلق جرس الباب وجاء صوت "حسين" من الخارج، ذهبتُ إلى باب الشقة وفتحتُ له، دعوته للداخل وأخبرتُه أنني على وشك صنع القهوة وسألتُه إذا كان يريد بعضًا منها، ابتسم وقال أنه لا يمانع رغم أنه يعلم أنني أصنعها بشعةً جدًا!

بدأتُ في صنع القهوة وشعرتُ بهدوءٍ على نحوٍ مفاجئ بسبب وجود "حسين"، جلسنا نحتسي القهوة بينما قال "حسين" وهو يضحك:

- أين اختفيتَ يا صديقي؟

- أنت تفهم.

تنهد "حسين":

- نعم.. أفهم، هل من جديدٍ بخصوص "ريان"؟

ترددتُ قليلًا، فكّرتُ أن أخبره عن المواقف الغريبة التي حدثت، لكن في النهاية فضّلت الصمت عنها، وقلتُ له:

- كل شيءٍ على ما يُرام.

سألني في شكٍّ:

- أأنت واثقٌ من هذا؟

قلتُ بسرعةٍ لأتجنب المزيد من الأسئلة:

- تمام الثقة.

صمت "حسين" لحظاتٍ، ثم قال:

- حسنًا، كما تشاء.

حاولتُ أن أدير دفة الحديث:

- والآن، أخبرني ما سر تلك الزيارة الكريمة.

قال بسرعةٍ:

- هناك رحلة سفاري خلال أيام، ما رأيك؟

ترددتُ:

- أعتقد...

قاطعني "حسين":

- لا تعتقد شيئًا، صدقني أنت و"ريان" تحتاجان إليها.

فكّرتُ:

- بالنسبة لي أنا موافق.

- جيد جدًا، سوف أقوم بإدراج اسميكما؛ موعدنا بعد ثلاثة أيام.

ثم نهض بعد أن اتفقنا على كل تفاصيل الرحلة. وبمجرد أن خرج، ذهبتُ إلى "ريان" وعرضتُ عليه الفكرة واختتمتُها قائلًا:

- ستكون رحلة سفاري رائعة جدًا.

نظر لي بتردد، ثم سألني:

- وما الذي سنفعله هناك؟

ابتسمتْ قائلًا:

- الأمر بسيط جدًا، عبارة عن رحلة ومعسكر و...

وبدأتُ أشرح له بحماسٍ طبيعة رحلات السفاري، لكنه بدا غير مهتم، ورغم ذلك واصلتُ إقناعه، حتى وافق على مضضٍ، ليكون ذلك نهاية فصلٍ وبداية فصلٍ جديد من الرعب.

الفصل التاسع
معسكر الفزع

وصلنا إلى موقع الرحلة بعد الظهر تقريبًا؛ المكان رائع جدًّا، وقريب من الطريق السريع، لكن رغم ذلك كان يتمتع بعزلةٍ طبيعية جعلت منه مكانًا مثاليًا للتخييم وإقامة المعسكرات.

كُنا حوالي ثلاثين شخصًا، وبدأنا فور وصولنا في ممارسة الأنشطة المعتادة؛ نصبنا الخيام التي سننام فيها، تعلّمنا بعض المهارات الخاصة بالكشافة، ثم مع اقتراب الليل، اجتمعنا حول حفلة سمرٍ ممتعة. كان كل شخصٍ يقدم موهبته أمام الجميع، البعض يغني، آخرون يلقون الشعر، والبعض يحكي قصصًا مسليةً، وكلٌ منا يشارك بما يجيده.

حين انتهت الحفلة، جلستُ مع "حسين"، وقررنا إشعال نارٍ صغيرة للجلوس حولها؛ لنستمتع بالدفء ونقضي بقية الليلة.

بعد مدة لاحظت أن "ريان" صامتٌ تمامًا، اقتربت منه وقلتُ له:

- ما رأيك؟

قال في ضيقٍ:

- أريد الدخول إلى الخيمة.

كان كلامه غريبًا جدا خصوصا أن الجميع مستمتع بالأجواء، فلماذا بدا منزعجًا هكذا؟

- حاول أن تستمتع وتندمج معنا.

قلتُ له ذلك لكنه لم يهدأ، وقال في غضبٍ:

- لقد سئمتُ من هذا كله، لم يكن يجب أن آتي معك من الأساس.

هذه المرة نفد صبري، فالتفتُ إليه بغضبٍ متبادل وقلتُ:

- تحلَّ بالصبر قليلًا.

فوجئتُ به يقول في استسلامٍ غريبٍ:

- حسنًا.

وبعدها لاذ بالصمت التام، ومنذ تلك اللحظة لم أعد أسمع صوته!

استمر الوقت في الانسياب، وانشغلتُ بالحديث مع "حسين"، حتى نسيتُ تمامًا أن "ريان" كان يجلس بجواري. وفجأةً، دوى صوتٌ عنيفٌ، صوت سقوط شيءٍ ثقيل على الأرض؛ التفتُ إلى "حسين" وقلتُ له:

- هل سمعتَ ذلك؟!

أجاب في توتر:

- الجميع سمعه.

بدأنا نسمع حركةً سريعةً تدور حولنا، وخطواتٍ خاطفةً غير مرئيةٍ تجري في المكان بسرعةٍ غير طبيعية، لدرجةٍ أصابت الجميع بالذعر!

في تلك اللحظة، اكتشفتُ أن "ريان" ليس بجواري:

- أين "ريان"؟

قال "حسين" وهو يشير بعيدًا:

- لقد رأيته يمشي باتجاه تلك المنطقة المليئة بالأشجار.

حدّقتُ به في غضبٍ وأنا أقول:

- ولماذا لم تخبرني؟!

رفع "حسين" يديه بارتباكٍ وقال:

- ظننتُ أنه سيعود سريعًا، ثم نسيتُ الأمر تمامًا. على أي حالٍ، لا وقت للعتاب الآن، علينا العثور عليه فورًا.

وهكذا ودون تردد انطلقنا سويًا نركض بين الأشجار نبحث عن "ريان" ونحن ننادي عليه:

- "ريان".. "ريان".

كنتُ أشعر أن الخوف وحشٌ جائع ينهشني من الداخل، قلتُ وأنا أتلفت حولي:

- ماذا لو حدث له مكروه؟ لقد وعدتُه أن أعتني به.

قال "حسين" في اضطرابٍ:

- لا تقلق، سوف نعثر عليه، لكن علينا أن نفترق.

وبالفعل، ذهب "حسين" في اتجاهٍ وذهبتُ أنا في الاتجاه الآخر. أمسكتُ بالكشاف في يدي وأخذتُ أضيء الطريق وأنا أركض بجنونٍ، وفجأةً وسط الظلام، جاءني صوتٌ من فوق رأسي تمامًا:

- "شريف".

رفعتُ بصري على الفور، وفوجئتُ أن "ريان" يتسلق شجرةً ضخمةً، صرختُ فيه:

- هذا خطيرٌ جدًا.

ضحك قائلًا:

- ألم تقل إن السفاري تعتمد على الطبيعة؟ أردتُ أن أجرب كيف كان الناس قديمًا ينامون فوق الأشجار.

- كان هذا في زمن إنسان الكهف، إذا سقطتَ قد تموت، انزلْ فورًا.

قال "ريان" في مرحٍ وهو يتسلق فرعٌ أطول:

- لا تقلق، أنا محترف.

وهنا بدأ الفرع يهتز تحت وزنه، وسمعتُ صوت طقطقةٍ مريبة، فصرخت في "ريان":

- انتبه.. سوف...

لكن قبل أن أكمل جملتي انكسر الفرع فجأة وسقط "ريان" من على ارتفاع قاتل.

***

اندفعت نحو "ريان" بجنونٍ، أريد أن أنقذه قبل السقوط، أن أوقف الزمن، أن أغيّر القدر. لكن كل شيءٍ حدث في لمح البصر، جسده هوى بقوةٍ ورأسه اصطدمت مباشرةً بصخرةٍ ضخمة ملقاة على الأرض!

لم يصرخ، لم يصدر عنه أي أنينٌ، لم يتحرّك، ظل جسده ممددًا على الأرض بلا حراك، عينه مفتوحة باتساعٍ، تحدّق في الفراغ دون أي رمشةٍ كأنّها تجمدت على مشهد النهاية!

نظرت إليه، رقبته ملتوية في وضعٍ بشعٍ، فقرات عنقه خرجت من مكانها، الدم يسيل ببطءٍ من رأسه، ويتجمع في بركةٍ صغيرةٍ داكنة اللون تتمدد تحت جسده الذي تحوّل إلى جثةٍ هامدة!

سقطتُ على ركبتي، ووضعتُ وجهي بين كفي وانفجرتُ في البكاء، "ريان" مات، مات بعد كل ما فعلتُه، لا أصدق أن كل شيءٍ انتهى بهذه الطريقة!

- "شريف".

انتفضتُ حين سمعتُ ذلك؛ رفعتُ وجهي ونظرتُ إلى مصدر الصوت، كدتُ أفقد عقلي من شدة الذهول، كان "ريان" يقف أمامي، يبتسم بهدوءٍ مرعب ويقول:

- لماذا تبكي؟

حدّقتُ فيه وأنا عاجزٌ عن التصديق، كان سليمًا تمامًا، لا أثر للدماء، لا كسور، لا ندوب!

شيءٌ لا يصدقه عقل، مستحيل؛ لقد رأيتُه يسقط، رأيتُه يموت أمام عيني!

تراجعتُ خطوةً إلى الوراء وأنا أردد بصوتٍ متقطع:

- لكن كيف؟! لقد.. لقد رأيتُك وأنت ميت.

ضحك بهدوءٍ وقال:

- وهل أبدو لك مثل شخصٍ ميت؟!

استدرتُ نحو الشجرة، الفرع لا يزال مكسورًا وبركة الدماء لا تزال هناك. إذن، ما رأيتُه لم يكن وهمًا، لقد حدث بالفعل!

عدتُ ألتفت إلى "ريان"؛ كان لا يزال يبتسم بغموضٍ وينظر لي نظرةً لا أفهمها. هل هو حيٌ حقًا، أم أنني أتحدّث مع شيءٍ آخر؟!

فكّرتُ وقلتُ لنفسي أن هذه ثاني مرة يعود فيها من الموت!

نظر لي "ريان" قائلًا في دهشةٍ:

- ماذا تقول؟

انتبهتُ أنني كنتُ أفكّر بصوتٍ عالٍ فقلتُ:

- لا.. لا شيء.

- حسنًا، سأذهب لأستريح.

قالها "ريان" ثم استدار دون أن ينبس بكلمةٍ أخرى، وسار باتجاه منطقة التخييم. أسرعتُ خلفه وأنا ممزق المشاعر بين الخوف والصدمة وشعور غريب بالارتياح؛ لأنه ما زال على قيد الحياة.

***

حين عدنا إلى المخيم، كان "حسين" يقف عند المدخل، وعلامات القلق مرسومة على وجهه. وما إن رآنا، حتى تنفس بارتياحٍ ثم التفت إلى "ريان" وسأله:

- هل أنت بخير؟

نظر إليه "ريان" ببرودٍ وقال:

- أنا أفضل منك.

اتسعت عيني من طريقة الرد والتفتُ إليه قائلًا بغضبٍ:

- لا تتحدّث معه بهذه الطريقة.

لكن "حسين" لم يبدُ منزعجًا، بل ابتسم ابتسامةً خفيفةً وقال بنبرةٍ ودودة:

- لا بأس، إنه مجرد طفلٌ صغير يحب المزاح.

لكن "ريان" أدار رأسه إليه وقال بجحودٍ شديد:

- أنا لستُ طفلًا.

أمسكتْ بيده على الفور وقلتْ في حدةٍ:

- تعال معي.

- كلا.

- كفى كلامًا ووقاحةً.

- أنا...

قاطعتْه بانفعالٍ وأنا أجذبه إلى داخل الخيمة بالقوة:

- لا تتكلم، دعنا ننام وننهي هذه الليلة بأي طريقةٍ كانت.

وبالفعل، ذهب "ريان" إلى ركنٍ في الخيمة، ثم سحب بطانيةً صغيرة وغطى بها جسده وقال:

- هذه الليلة ستكون طويلةً.

- ماذا قلتَ؟

- لا شيء.

راقبتْه في صمتٍ لبضع لحظاتٍ، لكنه ظلّ ساكنًا!

جلستُ أستريح، كان هذا اليوم قد استنزف كل ذرةٍ من طاقتي، ومع تصاعد الإرهاق، بدأت جفوني تثقل، وغلبني النُعاس وأنا لا أزال جالسًا في مكاني.

فجأةً، وجدتُ نفسي أقف على أرضٍ وعرةٍ وأمامي مقابر غريبة، مقابر عبارة عن جبلٍ هائل نُحتت داخله حفرٌ منفصلة يرقد فيها الموتى مدفونين في بطن الصخور نفسها، وفوق كل قبرٍ وضعت قوالب من الطوب الأحمر القديم، كعلامةٍ باهتةٍ تدل على وجودهم!

كان المكان يعجُّ بالصمت لكنه مكتظٌ على نحوٍ مخيف، عدد القبور بدا وكأنّه لا ينتهي، ملايين الحفر مصطفة بجانب بعضها البعض مثل مدينةٍ للأموات!

واصلتُ السير رغم خوفي ورغم رغبتي في التراجع والهروب، كنتُ أتحرّك بفعل قوةٍ خفية تدفعني نحو الأمام وتسحبني إلى المجهول. الأرض تحت قدمي صلبة، مليئة بالصخور والحجارة، لا حياة هنا، ولا صوت سوى صوتي الداخلي المرتجف الذي يهتف:

- تبًا لكل هذا.

ثم انفجرت صرخة!

صرخة حادة مزقت السكون، وشقت الصمت نصفين كالسيف؛ استدرتُ بسرعةٍ وقلبي يدقُّ كطبول حربٍ، كانت الصرخة تنبعث من داخل قبرٍ مفتوح.

ترددتُ للحظةٍ لكن الفضول أو ربما الرعب دفعني لإلقاء نظرةٍ داخل الحفرة، وهنا تجمّد الدم في عروقي، رأيتُ "ريان" ممددًا داخل القبر، يحتضن هيكلًا عظميًا!

وقبل أن أتمكّن من استيعاب ما أراه، انقلب كل شيءٍ وتبدّل المشهد من حولي في لمح البصر ووجدتُ نفسي ما زلتُ في الخيمة!

نهضتُ وأنا أشعر بجفافٍ شديدٍ في حلقي وأطنان من الملح والتراب، تناولتُ زجاجة ماءٍ وبدأتُ أشرب بنهمٍ شديدٍ، وضعتُ الزجاجة جانبًا بعد أن أصبحت فارغةً!

لمحتُ بطرف عيني "ريان" يقف عند باب الخيمة بلا حراكٍ

أو صوتٍ كأنّه تمثالٌ من الحجر الجامد، قلتُ بتوتر:

- "ريان"؟!

التفت نحوي ببطءٍ، لاحظتُ أنّه يرتدي ملابسه كاملةً كما لو أنه لم ينم قط. نظراته غريبة، غامضة، لم أفهمها، ورغم ذلك سألتُه:

- "ريان".. لماذا تقف هكذا؟

ظلّ صامتًا للحظاتٍ، ثم همس بصوتٍ خافت وكأنّه يخشى أن يسمعه أحدٌ غيري:

- تعال معي.

- إلى أين؟

قال في اضطرابٍ:

- أريد أن أريك شيئًا.

ثم بدأ يسير بسرعةٍ، خطواته ثقيلة، غير طبيعية. ناديتُه لكنه لم يجب، استمر في التقدم نحو الأشجار، حافي القدمين، يبتعد دون صوتٍ. نهضتُ وركضتُ خلفه وحاولتُ اللحاق به لكنه اختفى، لا يوجد أدنى أثرٍ له، كيف اختفى بهذه السرعة؟! وأين ذهب؟! الحل الوحيد أنه تبخر أو طار في الهواء!

نظرتُ حولي؛ المنطقة هادئة بشكلٍ مخيف، أشجار كثيفة تحيط بي، والظلام يبتلع كل شيءٍ. وقفتُ ألتقط أنفاسي، أبحث بعيني في ضوء القمر الشاحب، وبصعوبةٍ رأيتُ ظل "ريان" بعيدًا.. بعيدًا جدًّا!

كنت متأكدا انه لا يمكن أن يكون قد وصل إلى هناك بهذه السرعة، ورغم ذلك كان ظله يمتد عند حدود منطقةٍ مليئة بالأشجار والنباتات، فجأة سمعتُ صوته يأتي بوضوحٍ وبجانبي مباشرةً:

- "شريف".. تعال معي

شعرتُ أن قلبي سيتوقف؛ كيف يمكن ذلك؟! أنا أراه هناك، ظله بعيد ومع ذلك صوته هنا بجواري تماما!

ركضتُ خلفه دون تفكيرٍ متجاهلًا كل المنطق، دخلتُ بين الأشجار والزرع الكثيف، المكان هادئ كالمقبرة، لا صوت، لا حركة، فقط صمتٌ قاتل.

توقفتُ أتلفتُ حول نفسي وأنا أبحث عن "ريان". الأشجار الشاهقة تبدو كأنّها مخلوقاتٌ ضخمة ملتصقة تنتظر اللحظة المناسبة لكي تقتل وتمزق.

تدريجيًا بدأ البرد يتسلل إلى جسدي وشعرتُ أن دمي يتجمّد، نفختُ في يدي المرتعشتين لأشعر ببعض الدفء، لكن فجأةً سمعتُ صوت ضحكات أطفالٍ خبيثة، تتردد في الأجواء وتنبعث من العدم. بعد قليل سمعت أصواتًا أخرى؛ أصوات نساءٍ تصرخ، وخطواتٍ راكضة كأنّ أشخاصًا يطاردون بعضهم البعض!

رغم كل هذه الأصوات، لم يكن هناك أحد!

صرختُ باسم "ريان" أكثر من مرة، حتى سمعتُ صوته يخرج من عمق الظلام بين الأشجار وهو يقول في حدةٍ:

- تعال.

ترددتُ لكنني تحرّكتُ رغمًا عني، جسدي يرتجف، كل خليةٍ في كياني تصرخ بأن هناك شيئًا خاطئًا. كنتُ أرى ظل "ريان" أحيانًا، وأحيانًا كنتُ فقط أشعر بحركته دون أن أراه؛ حاولتُ مناداته عدة مراتٍ، لكنه لم يعد يجيبني، فقط يختفي ويظهر كأنّه يلهو بي.

وهنا، بدأتُ أستوعب الحقيقة؛ أنا لا أطارد "ريان" بل شيئًا آخر تمامًا، شيئًا يستدرجني ويريد إبعادي عن الناس، يجب أن أعود فورًا.

استدرتُ بسرعةٍ، وبدأتُ أتراجع بخطواتٍ سريعة نحو المعسكر وعقلي يصرخ بي أن أهرب حالا.

تجمدتُ في مكاني حين سمعتُ صوت "ريان" خلفي مباشرةً، وهو يقول:

- إلى أين تذهب يا "شريف"؟

التفتُ بسرعةٍ!

لا شيءَ سوى أشجارٍ تتمايل بفعل الرياح، لا أثر لكائناتٍ أو أشخاصٍ، ورغم ذلك كان هناك شيءٌ يتحرّك في الظلام!

شعرتُ بوجود "ريان" بين الأعشاب الكثيفة، يتحرّك ببطءٍ، ثم يتوقف فجأةً كأنّه يلعب معي ولا يريد أن أكتشف مكانه، ناديتُ عليه:

- "ريان"؟!

لا ردا!

فجأة عيني وقعت على شيءٍ مرعب بين الأغصان، رأيت عينان حمراوان كأنّهما جمرٌ متقد، تشتعلان في الظلام،

تحدّقان بي بثباتٍ، ومن تحتهما وجهٌ بشع، مشوه، مليءٌ بالندوب!

صرختُ واندفعتُ هاربًا بكل قوتي، وركضتُ بأقصى سرعةٍ، بينما صوت "ريان" يلاحقني بإصرارٍ عجيبٍ ويطلب مني أن أتوقف فورًا!

كانت الأغصان تتكسر تحت قدمي، لكنني لاحظتُ شيئًا أكثر رعبًا؛ هناك دماء، نعم دماء تغطي الفروع والأوراق وكأنّ السماء كانت تمطر دمًا!

ثم انطلقت صرخةٌ رهيبة مملوءةً بالغضب والكراهية، شقت سكون الليل.

- اااااه.

بعدها ظهر أمامي طفلٌ يشبه "ريان" لكنه كان أضخم، وملامحه مشوهة تمامًا، وجهه مسلوخٌ، جلده ممزقٌ ولحمه متآكل وكأنّه خرج لتوه من القبر.

- يا إلهي!

ركضتُ دون أن أجرؤ على النظر خلفي، كنتُ أحاول أن اقرأ أي شيءٍ من القرآن، لكن الخوف جمّد عقلي ولم أستطع أن أتذكّر حرفًا واحدًا.

استمررتُ في الجري، أتنقل بين الأعشاب محاولًا الهرب، لكن الصوت ظلّ يلاحقني فقررتُ أن أنظر مهما كانت العواقب!

نظرت خلفي فرأيتُ المخلوق يركض على أربع على يديه ورجليه كالحيوان!

هذا لم يكن "ريان"، لم يكن بشرًا أصلًا!

بذلتُ كل ما تبقى لديّ من قوةٍ حتى وصلتُ أخيرًا إلى المعسكر وأنفاسي متقطعة، وقلبي يكاد ينفجر من الخوف. وقفتُ ألهث وأنا أحاول أن أستعيد أنفاسي، يجب أن أوقظ الجميع فورًا، يجب أن أتصل بالشرطة. اندفعتُ إلى داخل الخيمة، وأمسكتُ الهاتف ويدي ترتجف، لكن قبل أن أتصل تجمّدتُ من الصدمة!

رأيت "ريان" نائمًا داخل الخيمة، ملامحه هادئة كأنّه لم يتحرّك أبدًا من مكانه!!

الفصل العاشر
ألسنة الشيطان

حين استيقظتُ في صباح اليوم التالي، شعرتُ أن هناك أمرًا غير طبيعيٍّ يسود المعسكرا!

لاحظتُ أن الجميع خارج الخيام ووجوههم شاحبة، نظراتهم قلقة، يتهامسون ويشيرون نحوي. ذهبتُ واقتربتُ من "حسين" الذي كان يقف بعيدًا، وجهه أصفر شاحب مثل الجميع، وكأنّ الحياة قد انسحبت منه ثم سألته في قلقٍ:

- المشهد لا يبدو مريحًا على الإطلاق.

- الحقيقة أن كل شيءٍ يدور حول "ريان".

- ولماذا هو تحديدًا؟

نظر لي" حسين" بتردد قبل أن يقول:

- لأن الليلة الماضية كل شخصٍ في المعسكر عاش كابوسًا مرعبًا كان بطله "ريان".

- كلهم؟!

- نعم، دون استثناء، حتى أنا.

- صدفة.. صدفة غريبة.

هزّ رأسه قائلًا:

- مستحيل.. صدقني، نحن نحاول تفسير ذلك، لكن لا أحد يملك تفسيرًا منطقيًا.

فكّرتُ قليلًا ثم سألته:

- أخبرني ماذا رأيتَ بالضبط؛ أريد أن أسمع كل التفاصيل.

أخذ "حسين" نفسًا عميقًا وبدأ يحكي:

- رأيتُ نفسي أركض داخل ممرٍ شبه مظلم، يبدو بلا نهاية. أركض بأقصى سرعةٍ، لا أعلم لماذا أو ما الذي أهرب منه، فقط أشعر أن هناك شيئًا خبيثًا يلاحقني في الظلام.

- ما هو هذا الشيء؟

قال في اضطرابٍ:

- لا أعلم، لم أجرؤ على النظر خلفي لرؤيته، فقط أكملتُ ركضي بلا هدفٍ وسط الممر. كان الممر مليئًا بسلاسل حديدية متدلية من السقف، وخطافات ضخمة تصطدم ببعضها، وتصدر أصواتًا حادة مخيفة، ثم...

- ثم ماذا؟

تردد "حسين" للحظةٍ ثم قال في خفوتٍ:

- سمعتُ صوت طفلٍ ينادي، كنتُ أعرف هذا الصوت جيدًا.. صوت "ريان". وفجأةً رأيتُه أمامي، لكنه لم يكن "ريان" الذي أعرفه ليس تمامًا؛ كان جسده ضخمًا كالغوريلا ومغطى بالدماء.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

عاد يكمل ويقول:

- تجمّدتُ في مكاني لم أستطع الركض، لم أستطع حتى أن أتنفس، وفي نفس الوقت شعرتُ بثقلٍ رهيبٍ على ظهري ثم بدأ ظهري ينحني بالقوة، وجسدي ينضغط لأسفل، وبدأتُ

أرتكز على يدي وقدمي وكأنّني أتحوّل إلى حيوان.

صمت "حسين" للحظةٍ قبل أن يتابع وصوته يهتز:

- كان "ريان" يضحك ومستمتعًا برؤيتي وأنا أتحوّل إلى حيوانٍ، وتحديدًا كلب أسود. حاولتُ أن أركض وأهرب منه لكن بدلًا من أن أبتعد عنه، وجدتُ نفسي أتحرّك نحوه وانحني عند ساقه.

- لا تكمل يا صديقي.

لكن "حسين" أكمل كأنّه لم يسمعني:

- بعد قليلٍ، ظهرت مخلوقاتٌ سوداء مرعبة، لم أستطع حتى وصفها؛ عيونهم كانت تتوهج وسط الظلام، تحاصرني من كل اتجاهٍ واقفين في صمت يراقبون ما يحدث. أمّا "ريان"، فقد فتح فمه على آخره بشكلٍ غير طبيعيٍ وكأنّه سيلتهمني. مدّ يده نحوي، وعندما حاولتُ منعه، بدأت السلاسل الحديدية في السقف تتحرّك وبدأت الخطافات تهبط، حتى شعرتُ بواحدةٍ منها تخترق ظهري.

صمت "حسين" وحاول السيطرة على مشاعره، ثم عاد يقول:

- صرختُ من الألم، لم أستطع المقاومة؛ السلاسل بدأت تسحبني للأعلى، وجسدي أصبح معلقًا في الهواء مثل الذبيحة والدماء تسيل مني.

ارتعش جسدي وقلتُ:

- يا للبشاعة!

قال "حسين" وملامحه ترتجف:

- بدأت أصرخ وأتوسل، بينما "ريان" يقف مباشرةً أسفل مني يستحم بدمائي ويستمتع بها.

وضعتُ يدي على كتفه وقلتُ:

- يكفي هذا يا "حسين".

هزَّ رأسه بقوةٍ قائلًا بانفعالٍ:

- لا يا "شريف"، صدقني شيءٌ ما يحدث هنا، شيءٌ غير طبيعيّ، أنا ما زلتُ أشعر بالألم في ظهري وكأنَّ السلسلة لا تزال مغروسةً هناك.

حاولتُ أن أطمئنه وقلتُ:

- مجرد كابوس.

هتف "حسين" في حزمٍ:

- الكابوس لا يراه الجميع في نفس الوقت.

- ماذا تعني؟

أجاب قائلًا:

- بعد أن استيقظتُ فوجئتُ أن بقية أفراد المعسكر يندفعون خارج الخيام بوجوهٍ شاحبة ونظراتٍ مذعورة، يتحدثون في هلعٍ عن كابوسٍ رأوه جميعًا، نفس الكابوس الذي عشتُ فيه. والآن، قُل لي يا عبقري، ما هي احتمالية أن نحلم جميعًا بالكابوس ذاته وبنفس التفاصيل المرعبة؟!

***

- اليوم هو الأخير في الرحلة، وغدًا صباحًا سنعود.

قلتُ ذلك لـ"ريان" وأنا أجلس معه؛ فارتفع حاجباه للحظةٍ

وقال في براءةٍ هائلة:

- لماذا؟ أعتقد أنه يتبقى يومان.

حاولتُ أن أبتسم:

- فقط لم أعد أشعر بالراحة.

ابتسم "ريان" ثم هزّ رأسه ودخل إلى الخيمة وجلس في أحد الأركان، تركته وانضممتُ إلى "حسين" وبقية الشباب.

كان اليوم جميل جدا لكن مع اقتراب المساء، ودون أي مقدماتٍ تكاثرت السحب في السماء كأنّ يدًا عملاقة غطتها وانهالت علينا الأمطار بغزارةٍ وأغرقت المعسكر تمامًا.

من حسن الحظ أنه كان يوجد أحد بيوت الشباب القريبة من المعسكر؛ تركنا كل شيءٍ وانطلقنا إليه. وصلنا بعد مدةٍ بسيطة وهناك استقبلنا المشرفون بحرارةٍ وفتحوا لنا القاعة الرياضية لمَن يرغب في ممارسة أي نشاطٍ رياضيّ، انقسمنا إلى مجموعاتٍ صغيرة؛ البعض توجه إلى كرة السلة، وآخرون للكرة الطائرة، بينما فضّل البعض الجلوس والدخول على الإنترنت!

حاولتُ أن أجعل "ريان" يشارك في أي نشاطٍ لكنه رفض وانسحب إلى زاويةٍ بعيدة، وجلس بمفرده بعيدًا عن الجميع، اقتربتُ منه وسألتُه:

- إن تركتُك وحدك، هل ستكون بخير؟

أجاب بصوتٍ خافت دون أن ينظر إليّ:

- لا تقلق، اذهبْ واستمتعْ بوقتك.

نظرتُ في وجهه:

- متأكّد؟

ابتسم:

- طبعًا.

وبالفعل، تركتُه وانشغلتُ مع مجموعةٍ في لعب تنس الطاولة، كان الجو ممتعًا والوقت يمرُّ سريعًا، حتى لاحظتُ "حسين" يقترب مني بخطواتٍ متوترة ويقول:

- أريد أن أحدّثك في أمرٍ مهم.

ثم أشار بعينيه نحو "ريان" الذي كان لا يزال في ركنه المعزول، وقال بصوتٍ منخفضٍ:

- منذ قليلٍ، قام رجلان بمضايقة "ريان"، وجدتُه يبكي فتدخلتُ وأبعدتُهما عنه، لكن نصيحتي لك لا تتركه وحده مرةً أخرى.

شعرتُ بالغضب يتصاعد داخلي وسألتُه بحدِة:

- مَن هما؟ أرني إياهما الآن.

- لا داعي، لقد أُنهيتُ الموقف، لكن الأمر المقلق هو ما سمعتُه من "ريان" بعد ذلك.

- ماذا قال؟

- كان يتمتم لنفسه بجملةٍ واحدةٍ "سيدفعون الثمن.. سيدفعون الثمن".

- ماذا يقصد؟

قال "حسين" في توتر:

- الكلام واضح يا "شريف".

قلتُ في استنكارٍ:

- "ريان" مجرد طفل.

نظر "حسين" إلى "ريان" مجددًا، ثم قال في حدةٍ:

- كلانا يعلم أن هذا غير صحيحٍ، الجميع هنا يشعر بالخوف منه.

فتحتُ فمي لكي أرد عليه لكن فجأةً اهتز المكان بعنفٍ، وارتطمت الأبواب والنوافذ بشدةٍ كما لو أن عاصفةً هوجاء اجتاحت القاعة، وأُغلقت جميع النوافذ في لحظةٍ واحدة، لكن ليس هذا هو الشيء المرعب.. المرعب أن باب القاعة، الذي كان مفتوحًا منذ لحظاتٍ اختفى تمامًا وحلّ مكانه جدارٌ من الصلب!!

***

ظهر الخوف جليًا على وجوه الجميع، بعضهم راح يقرأ آياتٍ من القرآن، وآخرون تمتموا بالاستعاذة من الشيطان، لكن الأمر لم يتوقف عند ذلك. بدأت تتعالى أصواتٌ غريبة من كل اتجاهٍ، أصواتٌ مبهمة تخرج من الجدران، وأخرى تنبعث من تحت الأرض، كأنّ المكان ذاته بدأ يتحدّث إلينا بلغةٍ لا نفهمها!

هتف "حسين" في عصبيةٍ:

- ماذا يحدث؟

قلتُ وأنا أتحرّك:

- صدقني لا أعرف، لكن الأفضل أن نخرج من هنا.

فجأةً، ظهرت فوق رؤوسنا سحابةٌ سوداء غامضة كأنّها خرجت من العدم، وتحوّلت إلى دوامةٍ من الظلام والأضواء!

تراجعنا جميعًا من الرعب، بعض الشباب أُخرجوا هواتفهم المحمولة وبدأوا في التصوير، بينما حاول آخرون الاتصال بالنجدة لكن لا أثر لأي شبكة، لا إشارة، لا اتصال، كأنّنا انفصلنا عن العالم الخارجي بالكامل!

بعد قليلٍ، بدأت السحابة تتفتت إلى أجزاءٍ صغيرة، كأنّها تنقسم إلى ذراتٍ، وبدلًا من أن تختفي بدأت تسقط علينا كما لو كانت مطرًا، لكن عندما لامستني، أدركتُ الحقيقة لم يكن مطرًا بل رمادًا أسود ناعمًا، يلتصق بالجلد ويترك أثرًا باردًا غريبًا جدًّا!

في تلك اللحظة، تحوّلت وجوه الشباب إلى قناعٍ من الذعر، منهم من بدأ يركض في كل اتجاهٍ؛ يبحث عن مخرجٍ، لكن لم يكن هناك مفرّ، البوابة الوحيدة التي كانت منفذنا للخروج لم تعد موجودةً، حلّ مكانها جدارٌ حجري كأنّها لم تكن هناك من الأساس!

سمعتُ صوت "حسين" يأتي من خلفي مذعورًا:

- "شريف".. لا يوجد مخرج.

التفت إليه في حركةٍ حادةٍ فتابع وهو يجري بعيدًا:

- حاول أن تبحث عن "ريان".

بدأتُ أبحث عن "ريان" بين الحشود المذعورة حتى وجدتُه يقف في منتصف القاعة غير مبالٍ بكل ما يحدث حوله. كل مَن حوله كانوا يصرخون، يتحرّكون في رعبٍ، بينما هو ظلّ

ساكنًا، كأنّ هذا العالم لا يعنيه، حتى الرماد الأسود لم يكن يسقط عليه بدا وكأنّه محميٌ بمظلةٍ خفية تمنع أي شيءٍ من الاقتراب منه.

حاولت التحرّك نحوه، لكن قدمي تجمّدت في مكانها، أردتُ أن أناديه، أن أجعله ينظر إلَيّ لكنه لم يكن منتبهًا لي، عيناه ثابتتان على شيءٍ ما، ثم سمعتُ صوت همساتٍ خشنة قادمة من داخل رأسي وشعرتُ بألمٍ حادٍّ في عقلي، وكأنّ هناك مَن يحاول أن يسيطر عليه، وهنا سمعتُ "ريان" يتكلم دون أن يحرّك شفتيه:

- ابقَ مكانك.. أنا سأحميك.

شعرتُ بقُشعريرةٍ تجتاح جسدي، وعندما نظرتُ حولي رأيتُ "حسين" يصل إلى الجدار الذي كان في السابق باب القاعة، كان يصرخ ويضرب عليه بيديه بكل قوته:

- النجدة.. أخرجونا من هنا.

ثم فوجئتُ به يفقد أعصابه، ويخرج مسدسه فقلتُ:

- "حسين"، أنت لم تخبرني أنك أحضرتَ سلاحك.

لكنه فقد أعصابه وبدا يطلق الرصاص على الجدار وهو يصرخ:

- يجب أن نخرج.

زادت حالة الهرج والمرج خصوصًا مع ارتداد الرصاص وارتطامه بالجدران بطريقةٍ عشوائية إلى أن نفدت الطلقات.

وفي تلك اللحظة، رأيتُ "ريان" يحرّك شفتيه، ويتمتم بكلماتٍ غير مفهومة بصوتٍ خافت، وبعد ذلك اهتزت الأرض

تحت أقدامنا.

فجأةً، سقط أحد الشباب على الأرض وبدأ في التشنُّج بعنفٍ، جسده يرتجف بطريقةٍ غير طبيعية وكأنّه أصيب بمسٍّ شيطانيٍّ، ثم سقط آخر، وثالث، ورابع، تساقطوا واحدًا تلو الآخر مثل أحجار الدومينو، يصرخون ويتلوّن على الأرض، بعضهم بدأ يضرب رأسه بالجدران بقوة، رغم الدماء التي سالت على وجوههم، لم يتوقفوا عن الضرب، كأنّ هناك قوةً خفيةً تجبرهم على ذلك!

كنتُ أشاهد كل هذا وأنا لا أفهم شيئًا؛ صرختُ:

- ما الذي يحدث بحق الجحيم؟!

عندما عدتُ أنظر إلى "ريان" مجددًا، شعرتُ بالخوف منه.. كان يقف هناك ينظر نحوي مباشرةً لكن لم يكن هو لم يكن "ريان" الذي أعرفه؛ عيناه لم تعد بشريةً كانت بيضاء بالكامل، بلا بؤبؤ، بلا حياة كأنّها نافذة إلى عالمٍ آخر لا ينتمي إلى البشر. وعلى وجهه ارتسمت ابتسامةٌ بطيئة، ابتسامة مرعبة خبيثة، ثم بدأت عروقٌ سوداء تبرز تحت جلده، وتزحف على وجهه مثل خيوط العنكبوت، تنتشر في أنماطٍ غريبة مخيفة كأنّها علاماتٌ شيطانية تنبض بالحياة!

تدريجيًا لم أعد أشعر بأطرافي، ولم أعد أسمع سوى صوتٍ واحد يتردد في رأسي.. صوت "ريان" وهو يقول:

- كان يجب أن يدفعوا الثمن.

صرخات...

صرخات لا نهائية، صرخات يائسة تملأ المكان، تزداد حدتها

حتى تحوّلت إلى سيمفونيةٍ مرعبة من الألم والمعاناة كأنّ أبواب الجحيم قد فُتحت على مصراعيها، كانت الأجساد ملقاةً في كل مكانٍ، بعضهم كان لا يزال يتلوى في عذابٍ، والبعض الآخر كان ساكنًا تمامًا، أعينهم مفتوحةً على وسعها من الذعر لكنها فارغة.

الدماء أغرقت الأرض، امتزجت بالرماد الأسود الذي استمر في التطاير في الهواء وكأنّه جزءٌ من كابوسٍ لا ينتهي، لم أعد أتحمل؛ انهرتُ على الأرض، أغمضتُ عيني بقوةٍ، وضغطتُ على أذني بكلتا يدي في محاولةٍ يائسةٍ لعزل نفسي عن كل هذا، كنتُ أرتجف لا أريد أن أرى المزيد. استمر الأمر لدقائق، أو ربما ساعات لا أعلم؛ لم أعد أدرك الزمن. وأخيرًا، هدأت الأصوات وتوقف كل شيءٍ وساد صمتٌ رهيبٌ قاتل كأنّ العالم نفسه قد انتهى.

فتحتُ عيني ببطءٍ، بينما جسدي لا يزال يرتجف، كان كل شيءٍ ساكنًا؛ الدماء في كل مكان، الرماد الأسود يغطي الأجساد لكن لا أحد يتحرّك، يتنفسون بصعوبة!

وهنا، سمعتُ الصوت.. صوتٌ قادمٌ من خلفي.. صوت شيءٍ يزحف على الأرض، تبعه أصوات خربشةٍ حادة كأنّ مخالب طويلة تخدش الأرضية بقوة!

تصلبتُ في مكاني، ولم أستطع الالتفات، لكنني شعرتُ به.. هناك شيءٌ قادم!

بصعوبةٍ استجمعتُ شجاعتي واستدرتُ ببطءٍ..

ورأيتُه..

رأيت مخلوقًا ذا هيئةٍ بشريةٍ يزحف على الأرض، لكنه لم يكن إنسانًا كان يمشي على يديه وقدميه، ظهره محدب كأنّه مكسور، أظافره طويلة وحادة تخدش الأرض مع كل حركةٍ، كان عاريًا بالكامل، جلده أملس تمامًا بلا أي شعرٍ كأنّه مصنوعٌ من مادةٍ غير طبيعية.

حاولتُ أن أبتعد عنه لكنه أمسك بي ثم رفع رأسه نحوي وفتح فمه وأطلق صرخةً بشريةً، صرخةً تحمل صوتًا مألوفًا جدًا.. كانت صرخة "ريان"!

***

بدأتُ أزحف على الأرض باتجاه الباب، ورغم أن المسافة التي تفصلني عنه لا تتجاوز عشرة أمتارٍ إلا أنني شعرتُ أنها تمتد لمئات الأمتار، كان كل تقدُّم لي يزيد من وطأة الشعور بالرعب، خاصةً مع كل مرةٍ أسمع فيها صراخَ ذلك الكيان المرعب. كان بإمكانه اللحاق بي بسهولةٍ، لكنه ظلّ ثابتًا في مكانه دون أي محاولةٍ للمطاردة وكأنّه يستمتع بمشاهدتي غارقًا في خوفي وعجزي.

وأخيرًا، وصلتُ إلى الباب، لكن قبل أن ألمسه انفتح فجأةً بعنفٍ، واقتحم المكان عددٌ كبيرٌ من رجال الشرطة والإسعاف الذين اندفعوا لإنقاذ الجميع.

ألقيتُ نفسي إلى الخارج وأنا أتابع حالة الفوضى والهرج والمرج التي سادت، مشهد كلاسيكي من أحد أفلام الكوارث.

حين سألوني ما الذي حدث؟ لم أجد أمامي سوى أن أقول لهم أن الجنون قد أصاب الجميع فجأةً، لم أخبرهم بكل التفاصيل. قلتُ لهم أنني أعتقد أن هناك غازًا سامًا أو مادة

هلوسة تعاطاها الجميع، لن يصدق أحدٌ القصة الحقيقة أبدًا!

من حسن الحظ أنه لم يكن هناك قتلى، لكن الإصابات كانت بالغةً وخطيرةً جدًا، يمكنني القول أنني كنتُ الناجي الوحيد دون إصابات!

- "شريف".

التفتُ إلى مصدر الصوت؛ رأيتُ "ريان" يقف إلى جانبي أمسكتُ يده ولم أتكلم، كانت ملامحه باردةً تمامًا خاليةً من أي أثرٍ للدهشة أو الذعر كأنّ شيئًا لم يحدث على الإطلاق. قال ببرودٍ:

- أعتقد أن الوقت قد حان لكي نعود للمنزل.

الفصل الحادي عشر

ريان

بعد انتهاء المعسكر بكل الأحداث المؤسفة والمرعبة التي حدثت فيه، عدتُ مع "ريان" إلى المنزل، وقبل أن ندخل التفتُ إليه وقلتُ له بنبرةٍ حاسمة:

- "ريان"، لا تتحدّث عمّا جرى لأي أحدٍ لا صديق، لا قريب، لا غريب؛ ما حدث هناك يبقى هناك.

قال بصوتٍ هادئ:

- أطمئن، أنا أعرف جيدًا كيف أتصرف.

ثم أضاف بنبرةٍ فيها بعض الغموض:

- لكن أنا فقط أشعر بالقلق حيال صديقك "حسين".

حاولتُ التظاهر بالهدوء وأنا أقول:

- سيكون بخيرٍ، تم نقله للمستشفى، وحسب كلام الطبيب فقد يسمح له بالخروج الأسبوع القادم.

ابتسم "ريان" ابتسامةً خفيفةً وقال:

- سوف أصلي من أجله.

انتبهتُ في تلك اللحظة وسألتُه:

- لم أشاهدك تصلي من قبل يا "ريان"؟!

ابتسم وأجاب بسرعةٍ:

- وأنا كذلك، لم أشاهدك.

لم أجد ما أقوله، بينما عاد "ريان" يقول في هدوءٍ:

- سمعتُ أن الصلاة تحمي الإنسان مثل القرآن، يقولون أنه يطرد الجن والشياطين.

قلتُ مؤكّدًا:

- بالطبع؛ لأنه كلام الله.

تغيرت ملامحه فجأةً، وظهرت عليه علامات الضيق ثم قال:

- المفترض أن يكون كلام الله غير مؤذٍ؟

أجبتُه دون تردد:

- إنه يؤذي الشياطين فقط.

قلب كفيه في حيرةٍ وقال:

- لماذا؟

قلتُ في صرامةٍ:

- لأنهم شياطين؛ مخلوقون من نار السموم.

رمقني بنظرة شكٍّ ثم قال:

- لكن الله هو مَن خلقهم.

قلتُ بسرعةٍ:

- خلقهم أشرارًا.

صاح "ريان":

- إذن، ليس ذنبهم، كيف يحاسبهم وهو مَن زرع الشر فيهم منذ البداية؟

- كان لديهم حرية الاختيار تمامًا مثلنا؛ الاختيار بين الخير والشر.

- هناك أيضًا بشرٌ اختاروا الشرا

- ماذا تقصد؟

هتف في عصبيةٍ:

- أقصد أنه لا فرق بين البشر والشياطين وحتى الملائكة؛ نحن جميعًا مجرد قطعٍ في لعبةٍ كونيةٍ تتحكم فينا، ونتحرّك داخل سيناريو كُتب لنا.

وضعتُ يدي على كتفه محاولًا تهدئته:

- "ريان"، أرجوك أنا لا أستطيع الدخول في جدالٍ الآن.

ابتسم قائلًا في سخريةٍ:

- رغم أن الإنسان كان أكثر شيءٍ جدلًا، أو كما تقول الآية الكريمة.

حاولتُ أن أرد وقلتُ:

- الآية تصفنا بدقةٍ، نحن نريد أن نفهم ونتحدى ونشك لكننا في النهاية نبحث عن طمأنينةٍ لا نجدها إلا في التسليم.

قال وهو يبتسم بخبثٍ:

- التسليم؟ أم الاستسلام؟

- أحيانًا يكونان الشيء ذاته.

- أعتقد أنك مخطئ.

قالها "ريان" ثم توجه إلى غرفته مباشرةً، وأغلق الباب خلفه دون أي كلمةٍ أخرى!

بعد هذا اليوم، لم يعد "ريان" يخرج من غرفته إلا عند تناول الطعام فقط، وحتى حينما حاولتُ الدخول لترتيب الغرفة،

رفض بشدةٍ وقال لي بنبرةٍ حازمةٍ:

- لا أريد أن يدخل أحدٌ إلى هذه الغرفة سواي.

احترمتُ رغبته وتركتُه وشأنه، لكن مع مرور الوقت، بدأ الفضول ينهشني؛ كان الوقت الوحيد الذي يفتح فيه باب غرفته عندما يخرج لتناول الطعام أو الذهاب إلى الحمام. الغريب في الأمر أنه طوال وجوده في المنزل كان يفعل أي شيءٍ لمنعي من دخولي غرفته، وكأنّ لديه حاسة خاصة تجعله يستشعر اقتراب أي شخصٍ منها. بغض النظر عن مكان وجوده في المنزل، كان يشعر فورًا إن اقتربتُ من غرفته، ويأتي مسرعًا بطريقةٍ رهيبة!

ذات يومٍ، وعندما كان يقف في شرفة المنزل قررتُ استغلال الفرصة لأفتح باب غرفته وألقي نظرةً بداخلها، لكنني ما إن وضعتُ يدي على المقبض حتى تجمّدتُ في مكاني، التفتُ لأجده واقفًا خلفي مباشرةً يحدّق بي بعينين جامدتين وهو يقول بصوتٍ هادئ لكنه يحمل شيئًا مخيفًا بين نبراته:

- إلى أين أنت ذاهب؟

شعرتُ بتوتر شديد، حاولتُ تدارك الموقف فقلتُ بارتباكٍ:

- لا شيء، كنتُ فقط أريد الجلوس معك؛ لأرى إن كنتَ بحاجةٍ إلى شيء.

لم يعلق، فقط استدار بهدوءٍ، دخل غرفته، وأغلق الباب خلفه قائلًا ببرودٍ:

- شكرًا.

لم أستطع التحمل أكثر من هذا؛ خرجتُ وذهبتُ إلى "نورا"، جلستُ معها كالعادة وبدأتُ أحكي لها وبعد أن انتهيتُ من كلامي نظرت لي وقالت:

- نحتاج إلى أن نصل إلى أهل "ريان".

- حاولتُ أن أسال عنهم لكن لا أثر لهم.

قالت في دهشةٍ:

- غريب جدًا.

قلتُ في اضطرابٍ:

- في الحقيقة، أنا أعتقد أن هناك لعنةً تطارد "ريان"، أو ربما شيطانًا، أو شيئًا ما مجهول.

عقدت "نورا" حاجبيها وهي تقول:

- وماذا يريد بالضبط؟

لوّحتُ بيدي وأنا أقول:

- لا أعلم، حقيقي لا أعلم.

حدّقت "نورا" في وجهي للحظاتٍ قبل أن تقول:

- هناك احتمالٌ أن تكون المشكلة كلها في عقلك أنت، خصوصًا بعد أن تجاوزتَ حدود العقل واخترقتَ العالم الآخر.

- تقصدين أنني ممسوس؟

- يقال أن مَن اخترق احترق.

قلتُ في انفعالٍ:

- لا، أنا بخير، أقسم لكِ، هناك تفسيرٌ آخر لهذا حتمًا.

صمتت "نورا" قليلًا، ثم قالت:

- الشخص الممسوس لا يدرك أبدًا أنه مصاب.

انفجرت قنبلةٌ داخل رأسي حين قالت ذلك.

بدأتُ أستعيد كل ما مررتُ به، كل التفاصيل، كل اللحظات المخيفة، وكل الكوابيس والرعب، هل من الممكن أن يكون كل هذا مجرد وهم؟ هل يُعقل أنني أنا الممسوس، وليس "ريان"؟!

قالت "نورا" وهي تنهض:

- أريد أن أرى غرفتك يا "شريف".. الآن.

***

اصطحبتُ "نورا" معي للمنزل، وبمجرد أن دخلنا أوصلتها إلى باب غرفتي وقلت:

- تفضلي.

- شكرا.

لكن قبل أن تخطو "نورا" للداخل، توقفت فجأةً كأنّ شيئًا غير مرئيٍ جذبها إلى الوراء، ورأيتُ نظرةً غريبةً ترتسم على وجهها، ثم نظرت نحوي مباشرةً وقالت:

- "شريف".

- نعم، ما الأمر؟!

لم تجب، بل رفعت يدها وأشارت نحو أحد الجدران؛ نظرتُ في الاتجاه الذي أشارت إليه، وهناك على الجدار الأبيض النظيف رأيت شيءً لم أره من قبل، أو ربما رأيته لكنني لم

أستوعب وجوده.

كان وجهًا!!

لكن ليس أي وجهٍ، بل كان وجهي مرسومًا بالرماد الأسود على الحائط!

تقدمت "نورا" ببطءٍ نحو الجدار، مدت يدها ولمست الرماد، ثم رفعت أصابعها إلى أنفها واستنشقت الرائحة بتركيز. لحظات من الصمت مرت قبل أن تقول في حدةٍ:

- هذا.. أثر الشياطين.

ارتجفت كلماتها في الهواء مثل تعويذةٍ خفية، فحدّقتُ فيها بذهولٍ قبل أن أسألها:

- أثر الشياطين؟! وكيف عرفتِ ذلك؟!

ابتسمت ابتسامةً صغيرةً، لكنها لم تكن مطمئنةً، بل كانت ابتسامة امرأةٍ تعرف أكثر مما ينبغي، وقالت بهدوءٍ:

- هل نسيتَ أنني خبيرةٌ في عالم الماورائيات.

قلتُ في اضطرابٍ:

- لكن.. من أين أتى هذا الرماد؟!

لم تجب مباشرةً، بل سألتني:

- أخبرني؛ كيف رأيت "ريان" بالضبط؟ بأي هيئةٍ ظهر لك؟

- عادةً ما أراه كظلٍ أسود، يقف عند باب غرفتي يراقبني بصمت. لكن أحيانًا يكون أطول من المعتاد، أطول بكثير. وأحيانًا أراه مرتين في نفس اللحظة كأنّ هناك نسختين منه وهذا ليس كل شيء. الأحلام يا "نورا"، الأحلام التي تطاردني؛

أراه في كوابيسي يحاول أن يسحبني إلى داخل قبر.

ساد الصمت، صمتٌ مخيفٌ لم يقطعه سوى أنفاسنا المرتجفة. أمّا "نورا"، فقد ظلت تحدّق في الرماد على الحائط، كأنّ الإجابة التي تبحث عنها مختبئةٌ داخله، لم أستطع تحمل هذا الصمت أكثر فسألتُها بصوتٍ متوتر:

- هل أنا ممسوسٌ فعلًا؟!

أجابت:

- أنت بخير.

لكن قبل أن أستطيع التقاط أنفاسي، رفعت يدها وأشارت نحو غرفة "ريان" وقالت في حزمٍ:

- لكن هو.. لا.

***

اليوم التالي

حاولتُ إبعاد "ريان" عن تفكيري، لكن بدلًا من ذلك راح عقلي يصطخب بزحامٍ من المخاوف العشوائية، مخاوف أشبه بسربِ غربانٍ سوداء تأكل من رأسي.

ومع مرور الوقت، وجدتُ نفسي غير قادرٍ على كبح رغبتي في معرفة ما يخفيه "ريان"؛ فقررتُ المواجهة وذهبتُ إليه، وجدتُه يجلس صامتًا كعادته، سألتُه مباشرةً:

- "ريان"، لماذا تعزل نفسك هكذا؟

رفع رأسه ببطءٍ، قبل أن يقول بصوتٍ هادئ:

- هذا لمصلحتك.

- وغرفتك؟

نظر لي نظرةً باردةً، ثم قال:

- صدقني آخر شيءٍ قد ترغب في فعله هو دخول غرفتي وأنا لست فيها.

ابتلعت ريقي بصعوبةٍ وسألته، رغم أنني لم أكن واثقًا إن كنتُ أريد معرفة الإجابة أم لا:

- وماذا سيحدث لو فعلتُ ذلك؟

ابتسم ابتسامةً خافتةً لكنها لم تكن مطمئنةً على الإطلاق، وقال في حدةٍ:

- فقط اسمع كلامي؛ سأقول لك شيئًا واحدًا فقط الجهل أحيانًا يكون نعمةً كبيرة.

لم أستطع الرد، لم أحاول حتى؛ كان الأمر واضحًا للغاية.. "ريان" يخفي سرًا مرعبًا جدًا!

قررتُ أن أكتشف السر. طلبتُ من "ريان" أن يذهب لشراء زجاجة دواءٍ من الصيدلية بحجة أنني أشعر بالمرض، لم يظهر عليه الاقتناع بكلامي لكن على الأقل خرج من المنزل وتركني أخيرًا. وبمجرد أن خرج وأغلق الباب خلفه، شعرتُ بأن فرصتي قد حانت؛ كنتُ متأكدًا من أنه يخفي شيئًا ما في غرفته، وكنتُ مصممًا على اكتشافه! تقدمتُ ببطءٍ نحو باب غرفته، لأتفاجأ بورقةٍ مُعلقةٍ عليه كُتب فيها بخطٍ واضح "ممنوع الدخول"، كأنّه كان يعلم مسبقًا ما أفكّر فيه.

وضعتُ يدي على مقبض الباب وقلبي يخفق بقوة، نظرتُ حولي لا إراديًا، وأنا أخشى أن يظهر "ريان" من العدم كما

يفعل دائمًا لكنني تذكّرتُ أنه ليس في المنزل!

حاولتُ تهدئة نفسي ودفعتُ الباب ببطءٍ فأصدر صريرًا خافتًا، دخلتُ وأغلقتُ الباب خلفي، أخذتُ نفسًا عميقًا ونظرتُ حولي؛ الغرفة لم تكن كما توقعتُ.. توقعتُ أن أجد شيئًا مخيفًا أو غريبًا، لكن الغرفة كانت طبيعيةً تمامًا لا شيء يوحي بالغموض أو الخطر؛ الجدران لامعة، السرير مرتب، الأرض نظيفة!

اتجهتُ نحو السرير، وبينما كنتُ أمشي، شعرتُ بشيءٍ غير مألوفٍ تحت قدمي؛ انحنيتُ وسحبتُ جزءًا من السجادة، كانت هناك كومة كبيرة من الرماد الأسود، وكأنّ "ريان" كان يجمعه ويخفيه هناك عمدًا. مددتُ يدي ولمستُ الرماد بحذرٍ، كان ناعمًا جدًا وله رائحةٌ غريبة أشبه برائحة اللحم المحترق!

جمعتُ بعضًا من الرماد في يدي، ووضعتُه في جيبي، ثم أعدتُ السجادة كما كانت. بحثتُ في أنحاء الغرفة، لكن لم يكن هناك شيءٌ آخر يثير الشكوك. تنفستُ بعمقٍ، ألقيتُ نظرةً أخيرةً على المكان، واستدرتُ متجهًا نحو الباب للخروج لكن فجأةً سمعتُ صوت "ريان" يأتي خلفي:

- "شريف"!

لم يكن مجرد نداء عاديٍّ بل كان مليئًا بالحقد والكراهية!

التفتُ ببطءٍ لكن الغرفة كانت فارغةً تمامًا ولم يكن هناك أحد، لا أحد على الإطلاق!

حاولتُ أن أقنع نفسي أنني أتخيل أو أتوهم بسبب الخوف والتوتر، أخذتُ نفسًا عميقًا وأدرتُ وجهي مجددًا نحو الباب

لأخرج.

فجأةً، وجدتُ "ريان" يقف أمامي كأنّه ظهر من العدم؛ ملامحه كانت مختلفة ومرعبة، عيونه مشقوقة بالطول، عيون مخلوق غير بشريٍّ، جسده متسخ بالكامل، مغطى بطبقاتٍ كثيفة من الرماد الأسود، وجهه أشبه بكابوس، ممزق تمامًا، وتتساقط منها الدماء بغزارة!

تراجعتُ خطوةً للوراء وأنا أردد بلا وعي:

- "ريان"!

حدّق في وجهي بغضبٍ لا مثيل له، وكأنّه شرٌ متجسدٌ يقف أمامي، ثم ابتسم ابتسامةً باردةً، وبدأ يقترب مني بخطواتٍ بطيئة قائلًا في غضبٍ:

- لماذا لم تستمع إلى كلامي؟

كانت هناك تفصيلة مرعبة تزداد وضوحًا مع كل خطوةٍ يخطوها نحوي؛ كلما اقترب كانت قدماه تترك أثرًا غريبًا على الأرض، أثرًا من الرماد الأسود، وكأنّ جسده يتحلل أو يتلاشى ببطءٍ.

- كان يجب أن تستمع.

قال ذلك حين وصل عندي، ثم رفع يديه وقبض على عنقي؛ أصابعه باردة جدًا رغم حرارة الأجواء، وبدأ يعتصر رقبتي بلا رحمة بينما الرماد يتساقط من جبينه، من شعره، ومن كل جزءٍ في جسده كأنّه كيانٌ محترقٌ ينبعث من بين الرمادا!

حاولتُ الصراخ، لكن صوتي اختنق داخل حلقي. وهنا، سمعتُ صرخاتٍ رهيبة تحيط بي من كل جانب، صرخات

نساءٍ يملأها الرعب واليأس، وكأنّ أرواحًا معذبةً تتعذب بجواري، ثم بدأ السقف يتحوّل إلى ظلامٍ دامس، أشبه بسحابةٍ سوداء تتجسّد شيئًا فشيئًا حتى شعرتُ بأن الغرفة كلها تبتلعني داخل دوامةٍ من الرعب المطلق!

حاولتُ يائسًا أن أحرر نفسي، لكن قبضة "ريان" كانت أقوى ممّا يمكن تصوره. كلما قاومتُ أكثر كلما اشتدت يده على عنقي، وتدريجيًا بدا الهواء يختفي من رئتي، وشعرتُ بأنني أختنق، ألهث بحثًا عن أي ذرة أكسجين.. أنا أموت!

بصعوبةٍ قلتُ:

- "ريان".. توقفْ.

فجأةً، انفتح باب الغرفة بعنفٍ.

وهناك رأيتُ "ريان"!

نعم، رأيتُ "ريان" لكن المفاجأة لم تكن مجرد ظهوره، بل لأن هناك اثنين منه؛ الأول يقف عند الباب بملامحه الطبيعية. والثاني فوقي عبارة عن مخلوقٍ شيطانيّ، يواصل خنقي بكل قسوةٍ، كانا متطابقين تمامًا؛ أحدهما كان "ريان" الذي أعرفه، والآخر كيان لا ينتمي لهذا العالم!

- كيف؟!

قلتُ ذلك ثم أظلمت الدنيا من حولي ولم أعد أشعر بشيء.

الفصل الثاني عشر
الرماد الأسود

تنبهت حواسي دفعةً واحدة..

وجدتُ نفسي في غرفتي، ممددًا على الفراش ألهث بعنفٍ وأشهق بقوةٍ، مددتُ يدي إلى رقبتي التي كانت تؤلمني بشدة، ما زلتُ أشعر بالكدمات العميقة التي أحاطت بها كأنّما طوقتها يدٌ خفية وخنقتها بقسوة!

- "شريف".

التفتُ إلى مصدر الصوت فرأيتُ "ريان" يقف في ركن الغرفة وهو ينظر لي ببرودٍ، ثم اقترب مني بضعة خطواتٍ حتى صار بجوار رأسي، قبل أن يقول بصوتٍ منخفضٍ لكنه يحمل نبرة تهديدٍ:

- لا تنكر أنني قد حذرتُك أكثر من مرةٍ وقلتُ لك لا تدخل غرفتي.

قلتُ في اضطرابٍ:

- ما الذي حدث لي؟

- أنت بخيرٍ الآن.. لا تفكّر كثيرًا.

- لماذا؟

تجاهل "ريان" الرد، واتجه نحو باب الغرفة، وحين همّ بالخروج، التفت نحوي وقال:

- من حسن حظك أنني وصلتُ في الوقت المناسب؛ لقد أنقذتُك أكثر من مرةٍ، لكنني لن أفعل ذلك طوال الوقت.

- "ريان"، أنا مَن أخرجتُك من القبر.

رمقني بنظرةٍ صارمةٍ قبل أن يقول:

- وأنا أدين لك بذلك.

ثم خرج من الغرفة وأغلق الباب خلفه بقوةٍ، تاركًا إياي في دوامةٍ من الرعب والتساؤلات التي لا إجابة لها!

ظللتُ ألتقط أنفاسي محاولًا استيعاب ما حدث.

وهنا، تذكّرتُ الرماد الذي أخذتُه من غرفته؛ مددتُ يدي المرتعشة إلى جيبي وأخرجتُه، كان لا يزال كما هو مسحوقٌ أسود ناعم يشبه التراب. لكن فجأةً، وفي لحظةٍ خاطفة، بدأ يتغير في يدي؛ تحوّل الرماد إلى مادةٍ لزجةٍ، سوداء تشبه الزيت، وتفوح منها رائحةٌ كريهة نفاذة جعلت معدتي تريد أن تخرج من حلقي. حاولتُ أن أبعده عن يدي، لكن الصدمة جمّدتني في مكاني، وقبل أن أتمكّن من التفكير، شعرتُ بحرارةٍ غريبة وألمٍ حارق، ثم بدأ جلدي يتآكل ببطءٍ تحت تأثير تلك المادة! حاولتُ أن أمسحها بجنونٍ، لكن المادة اللزجة لم تكن مجرد سائل، بل كانت أشبه بكائنٍ حيٍّ زاحف، يتغلغل بين أصابعي مثل ديدان سوداء دقيقة، راحت تزحف داخل جلدي. وفي تلك اللحظة، أدركتُ أنني وقعتُ في لعنةٍ، لعنةٍ لا أملك أدنى فكرة عن نهايتها!

انهرتُ على الأرض بجسدي المرتعش، وبدأتُ أضرب كفي على الأرض بجنونٍ، محاولًا التخلُّص من تلك المادة اللزجة التي تلتهم جلدي، ومع كل ضربةٍ، كانت أجزاء منها تختفي، لكن الألم في يدي كان يزداد سوءًا، وبدأت الدماء تنزف

بغزارةٍ من الجروح التي تشكّلت على جلدي. لكن الأسوأ لم يكن النزيف، بل ما حدث بعد ذلك؛ اختلط دمي بالمادة السوداء، وبدأت تتفاعل معه بطريقةٍ مرعبة، رأيتُها تتكاثر بسرعةٍ غير طبيعية، وكأنّها كائنٌ حيٌّ يتغذى على دمي، يتمدد وينتشر في خطوطٍ دقيقة متشابكة، مثل عروقٍ سوداء تزحف فوق جلدي.

أطلقتُ صرخةً مكتومةً، ثم نهضتُ بسرعةٍ واندفعتُ نحو الحمام، أركض كالمجنون، وصوت قدمي يتردد في أرجاء المنزل. وضعتُ يدي أسفل الماء المتدفق، وبمجرد أن لامست المياه يدي، بدأت المادة السوداء تتحلل وتتبخر، لم تتبخر بشكلٍ طبيعيٍّ بل تحوّلت إلى دخانٍ أخضر كثيف، كأنّها تحترق تحت تأثير الماء.. كانت تختفي، بينما رائحتها النتنة تملأ المكان.. رائحة شيءٍ متعفن يحترق.

ظللتُ أفرك يدي بجنونٍ حتى اختفت تمامًا، لكن ما تبقى لم يكن أفضل؛ أصبحت يدي مغطاةً بالجروح، وخطوطًا حمراء دامية تحيط بها، أخذتُ ضماداتٍ طبية وبدأتُ ألفُّ يدي بالقطن والشاش محاولًا إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

***

الأيام التالية

تطورت الأمور أكثر؛ كنتُ أستيقظ في منتصف الليل وأنا غير قادرٍ على تحريك أي عضلةٍ في جسدي.. جسدي بأكمله كان مشلولًا، وكأنّني عالقٌ بين النوم واليقظة، بين الحياة والموت. ومع كل ليلةٍ، كنتُ أرى الشيء ذاته؛ خيال أسود مخيف يقف عند باب غرفتي لا يتحرّك، لا يتكلم، فقط

يراقبني بصمتٍ ثقيلٍ وأنا أشعر بعينيه تخترقان الظلام، وتحدّقان في وجهي.

كنتُ أغمض عيني بقوةٍ، أحاول أن أتنفس بهدوءٍ، أقنع نفسي أن كل هذا مجرد كابوس، حتى يغلبني النوم مجددًا، لكن مع كل صباحٍ، كان كل شيءٍ يعود إلى طبيعته وكأنّ شيئًا لم يكن.

ورغم ذلك، كنتُ متأكّدًا من شيءٍ واحد؛ هذا الظل.. هذا الكيان الذي أراه كل ليلةٍ هو "ريان"، لكن.. كيف؟! كيف يدخل غرفتي رغم أنني أحرص كل ليلةٍ على إغلاق الباب بالمفتاح؟!

الأكثر إثارةً للرعب هو أنني بدأتُ أجد رمادًا أسود متناثرًا في أرجاء المنزل، لم يكن في غرفتي فقط بل في الصالة، في المطبخ، وحتى في الشرفة، المصيبة الكبرى أنني مهما حاولتُ تنظيفه، دائمًا يعود من جديدٍ وينبض بالحياة، كأنّ هناك مَن يزرعه في المنزل دون أن أدري!

فكرتُ أن أتخلّص من "ريان". نعم، لا بدّ أن أتخلّص منه بأي طريقةٍ، بالطبع لن أقتله؛ أحتاج أن أضعه في مكانٍ آخر، قررتُ أن أضعه في ملجأ كما اقترحت "نورا". لكن قبل أن أفعل، أصابني هاجسٌ أن هناك شيئًا ملعونًا يدفعني لفعل ذلك وأن "ريان" بريءٌ من كل تلك الأحداث، حرفيًا كنتُ لا أستطيع أن أصل إلى قرارٍ!

فجأةً، رنّ هاتفي.

نظرتُ إلى الشاشة، فوجدتُ اسم "حسين"؛ ضغطتُ زر الرد فلم أسمع سوى أنفاسٍ متسارعة على الطرف الآخر، كأنّ شخصًا يركض أو يحاول استجماع أنفاسه، قلتُ:

- "حسين"؟ ما الأمر؟

جاء صوته أخيرًا، لكنه كان منخفضًا وكأنّه لا يريد لأحدٍ أن يسمعه:

- "شريف".. تخلّص منه.

ضغطتُ الهاتف على أذني أكثر، وسألته وأنا أعرف الإجابة:

- عن مَن تتحدّث؟

أجاب ببطءٍ:

- "ريان".

شعرتُ بوخزةٍ باردةٍ تسري في ظهري، ثم نظرتُ إلى باب غرفتي كان مغلقًا، لكنني لم أكن متأكّدًا إن كنتُ وحدي فعلًا، قلتُ له:

- لماذا؟

صمت "حسين" لثوانٍ، ثم قال بصوتٍ مرتجفٍ:

- تخلّص منه أرجوك.

- "حسين"، ما الذي يحدث؟

لكنه لم يرد، لم أسمع سوى صوت ضجيجٍ خافت، قبل أن ينقطع الاتصال!

نظرتُ إلى الهاتف ثم إلى الباب مجددًا، وشعرتُ أن هناك أحدًا يقف خلفه؛ استدرتُ لأعود مكاني لكن فوجئتُ أن "ريان" كان يقف خلفي!!

***

خرجتُ من المنزل مسرعًا، بعد ساعةٍ تقريبًا كنتُ داخلًا غرفة "حسين" في المستشفى. كان "حسين" مستلقيًا على الفراش، ووجهه شاحبٌ تمامًا، جلستُ إلى جواره وقبل أن أتكلم أمسك بيدي وقال:

- "ريان" وراء كل ما حدث في المعسكر، وأنت تعلم ذلك.

شعرتُ بتوتر يسري في جسدي، وقلتُ:

- ربما.. وربما لا.

صاح في حدةٍ:

- أنا متأكّدٌ.

- لماذا؟

- بسبب الجدران.

عقدتُ حاجبيّ في حيرةٍ وسألته:

- الجدران؟

نظر لي بعينين ممتلئتين بالخوف، ثم أشار ببطءٍ إلى جدران الغرفة من حولنا وقال:

- الجدران.. كانت تتحرّك.

- تتحرّك كيف؟ مستحيل.

هزّ رأسه بعنفٍ، وكأنّ مجرد الفكرة استفزته وقال بانفعالٍ:

- لا.. ليست هلوسةً.. أنا رأيتُها.. رأيتُ الحوائط وهي تتحرّك.. تتنفس.. تتكلم.. يخرج منها رمادٌ أسود مرعب.

ثم رفع يده ببطءٍ وأشار إلى الجدار الأبيض بجوار سريره، وعيناه تتسعان أكثر مع كل ثانيةٍ تمر، كأنّ شيئًا مرعبًا على

وشك الحدوث قبل أن يقول:

- "ريان" كان داخل الجدران.

ثم بدأ يحكي ويقول:

- بالأمس، وبعد أن تحدّثت معي حاولتُ أن أنام، أنت تعلم أن في الليل لا أحد يبقى مستيقظًا سوى الأطباء والممرضين الذين لا يظهرون إلا في حالات الضرورة، كنتُ وحدي في غرفتي، أراقب الجدران وهي تتحوّل.. تتحوّل إلى شيءٍ مرعب.

- ما هو؟

تردد لحظةً ثم قال في خفوتٍ:

- في البداية، رأيتُ تشققاتٍ صغيرة تظهر على الجدران، وكأنّها جروحٌ تُفتح ببطءٍ، ثم بدأت الدماء تتفجر منها مثل شلالٍ هائج، تملأ الغرفة وتغمر الأرض.

- يا إلهي!

- وسط هذا الطوفان الدموي، كان هناك شيءٌ آخر.. جسدٌ صغيرٌ يبدو مثل ظلٍّ أسود وسط العتمة.. لم أتمكّن من رؤيته بوضوحٍ أو تحديد ملامحه.. لكن عرفتُ مَن هو حين تحدّث معي.

- كان "ريان"؟

هزّ رأسه:

- نعم، كان هو. أخبرني أنه جاء من أجلي؛ صرختُ في رعبٍ وحاولتُ أن أهرب، لكنني كنتُ مشلولًا في مكاني. ثم بدأ

يتحرّك ناحيتي ويسير، وكلما اقترب بدأت ملامحه تتضح شيئًا فشيئًا؛ وجهه شيطاني، بشرته شاحبة إلى حد الموت، جسده عارٍ وأطرافه طويلة وبشعة.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

ارتجف صوته وهو يقول:

- حاولتُ أن أصرخ، لكن لم يكن هناك صوتٌ. شعرتُ بيدٍ خفية تطبق على حنجرتي وبرمادٍ أسود يغطي وجهي قبل أن يتوقف قلبي عن النبض.

- ماذا؟

قال بانفعالٍ:

- لقد متُ، هذا ما قاله لي الأطباء بعد ذلك؛ قلبي توقف تمامًا لمدة خمس دقائق.. خمس دقائق كنتُ فيها في عداد الموتى، لدرجة أنهم سجلوا وقت الوفاة رسميًا لكنني عدتُ. وعندما عدتُ أخبروني أنهم لم يفهموا كيف عاد قلبي للنبض، كيف عادت الحياة إلى جسدي بعد أن توقف تمامًا!

- اهدأ يا "حسين"، لا ترهق نفسك بالكلام، حاول أن تستريح.

أمسكني من عنقي وصرخ:

- أنت السبب يا "شريف".. أنت جلبتَ شيطانًا آخر إلى المدينة.. أنت...

لكن قبل أن يكمل كلماته حدث ما لم يكن في الحسبان؛ جسده تصلّب فجأةً كما لو أن تيارًا كهربائيًا اخترقه، وبدأ ينتفض بعنفٍ، عروقه انتفخت، ولسانه تدلى خارج فمه، بينما

اتسعت عيناه ببريقٍ غير طبيعيّ، كأنّه يرى ملاك الموت.

- "حسين"؟!

صرخت، وفي تلك اللحظة، اخترق الهواء صوتٌ حادٌ.. صوت جهاز قياس نبضات القلب وهو يطلق إنذاره القاتل.

صرخت مجددًا وأنا أحاول إنعاش "حسين":

- النجدة.

في أقل من ثوانٍ، اندفع طبيبٌ وممرضٌ إلى الغرفة، تعاونت معهما وأنا أشعر أنني داخل حُلمٍ أو كابوس لا يريد أن ينتهي، أو ربما ينتهي حين تخرج روح "حسين".

***

خرجت من المستشفى، سحبتني قدماي إلى "نورا"، وجدتُها في انتظاري كأنّها كانت تعلم بقدومي. جلست معها، كان يبدو عليها أنها تفهم لماذا جئت لكنها لم تبدأ بالحديث، تركتني لكي أحكي، وفعلًا حكيت لها كل ما جرى، وحين انتهيت قالت:

- بالتأكيد "حسين" محظوظٌ لأنه عاد من الموت مرتين.

قلت وأنا أمسح عرقي:

- كانت لحظاتٍ عصيبة، اعتقدت لوهلةٍ أنه لن يعود هذه المرة.

سألتني:

- هل سيكون بخير؟

- أتمنى ذلك.

- وماذا تنوي أن تفعل؟

قلتُ وأنا أمسح عرقي:

- أريد أن أنهي هذا الأمر.

قالت دون تردد:

- إذن، عليك أن تتخلّص منه.

- تقصدين "ريان"؟

هزت رأسها:

- نعم.

لوّحتُ بيدي:

- لا أستطيع.

- إن لم تفعل، فالأمور ستزداد سوءًا.

- لا يمكنني أن أتركه، لا أعلم حتى إلى أين يمكن أن أرسله.

نظرت إليّ مباشرةً، ثم قالت:

- هناك أماكن لمثل هؤلاء.

قلتُ بسرعةٍ:

- "ريان" ليس مثل هؤلاء.

أطلقت "نورا" زفيرًا وقالت بغضبٍ:

- هل ستتركه معك حتى يحدث ما هو أسوأ؟ فكّر جيدًا يا "شريف"، أحيانًا البقاء مع شخصٍ ما قد يكون أخطر من تركه؛ هناك كيانٌ شيطانيٌ يطارد "ريان".

- أحتاج إلى أن أعرف مَن المسئول عن كل ذلك، ربما أستطيع التخلُّص منه أو حتى إيقافه، أنا لن أتخلى عن "ريان"

بسهولة.

فكّرت "نورا" قليلًا قبل أن تقول:

- حسنًا، ربما يكون لديّ طريقة.

نظرتْ إليها في استغرابٍ وسألتْها:

- أي طريقةٍ؟

لم ترد "نورا" مباشرةً بل نهضت وغابت في غرفتها عشر دقائق تقريبًا، ثم عادت ومعها قميصٌ أصفر اللون!

وضعت القميص أمامي على الطاولة دون أن تنطق بكلمةٍ، مددتُ يدي وتحسسته؛ كان نسيجه ناعمًا بشكلٍ غريب، لكن ما لفت انتباهي حقًّا النقوش التي غطته بالكامل؛ خطوط هندسية متداخلة مع آياتٍ قرآنية، وطلاسم لا أفهم معناها، بعضها بدا كأسماء ملائكة، وبعضها لا أعرف إن كانت أسماء بشرية أم شيئًا آخر!

- ما هذا؟

أجابت "نورا":

- قميص طلسيمان، اشتريته من ساحر مغربي.

شعرتُ بانقباضةٍ في صدري، لم يعجبني هذا الكلام، نظرتُ إلى القميص مرةً أخرى، ثم عدتُ إليها وسألتُها في حيرةٍ:

- وماذا يفعل بالضبط؟

رفعت القميص أمام وجهي وقالت:

- كما ترى تلك النقوش بمثابة طلسم قادر على نقلك إلى عالمهم.

شعرتُ ببرودةٍ غريبة تسري في جسدي بعد أن أدركتُ ما تعنيه، لكنني كنتُ بحاجةٍ لسماعها تقولها بوضوحٍ فقلتُ لها في عصبيةٍ:

- تقصدين عالم الجن والشياطين؟

أومأت برأسها:

- إذا أردتَ أن تعرف مَن المسؤول عن كل هذا، فعليك أن ترى بنفسك.

أبعدتُ يدي عن القميص وقلتُ في اضطرابٍ:

- وكيف يفترض أن أفعل ذلك؟ أرتدي هذا وأجد نفسي هناك فجأةً؟

ابتسمت "نورا" ابتسامةً خفيفةً وقالت:

- ليس فجأةً، بل تدريجيًا؛ ستبدأ برؤية أشياءٍ لا تراها بعينيك العادية، ستسمع أصواتًا وتشاهد أحداثًا، ربما تكون في الماضي.. في المستقبل.. الزمن هناك يتحرّك بطريقةٍ دائرية؛ ما ستراه هو خاصٌ بك أنت.

نظرتُ إليها مليًا قبل أن أسألها في فضولٍ:

- وكيف تعرفين كل هذا؟

قالت ببساطةٍ:

- لأني جربته من قبل.

- وماذا شاهدتِ؟

شعرتُ أنها ستقول شيئًا مرعبًا لكنها قالت:

- أشياء خاصة بي لا أستطيع الحديث عنها.

ثم عقدت حاجبيها قبل أن تكمل وتسألني في حزم:

- والآن، هل أنت موافق أم لا؟

- موافق.

قلتُ ذلك ثم أمسكتُ القميص وقررتُ أن أخوض الرحلة.. رحلة إلى عالم الجن والشياطين.

الفصل الثالث عشر

قميص طلسيمان

ارتديتُ قميص طلسيمان؛ وبمجرد أن ارتديته شعرتُ بوخزةٍ باردةٍ تسري عبر جسدي، وكأنّ تيارًا كهربائيًا خفيفًا انطلق في عروقي!

سألتني "نورا":

- هل أنت بخير؟

- لا.

قلتُ ذلك وبدأتُ أغلق أزرار القميص واحدًا تلو الآخر، ولاحظتُ أن أطراف أصابعي ترتجف دون سببٍ واضحٍ فقالت "نورا":

- حاولْ أن تهدأ قليلًا.

جلستُ على المقعد بينما ناولتني "نورا" كوبًا فيه سائل غريب شفاف، وطلبت مني أن أشربه!

- ما هذا؟

أجابت:

- مشروبٌ روحانيٌ لمساعدتك على الانتقال.

لم أفهم بالضبط كلامها لكن بدأتُ أشرب، كان طعمه غريبًا ولذيذًا عكس توقعاتي، قلتُ لها:

- طعم ماء الورد.

- هذا ليس طعمه الحقيقي، كل مَن يتذوقه يشعر بطعمٍ

مختلف.

ثم سألتني:

- والآن، بماذا تشعر؟

لم أجب على الفور، كنتُ أبحث عن الكلمات المناسبة لكن قبل أن أنطق بدأ الهواء من حولي يتغير؛ الأثاث يبتعد ببطءٍ نحو الحوائط، الغرفة لم تعد كما كانت، الضوء أصبح باهتًا كأنَّ طبقةً شفافةً تفصلني عن العالم الحقيقي!

نظرتُ إلى "نورا"؛ فوجدتُ ملامحها مثل كادر فيلمٍ قديمٍ أبيض وأسود، ناديتُها فلم ترد. لونٌ أحمر كالدماء انسكب فوق وجهها، ثم سمعتُ أصواتًا كثيرة متداخلة، قادمة من كل الاتجاهات، بعضها يتحدّث بلغةٍ لم أفهمها، وبعضها يضحك، وبعضها يهمس باسمي!

أغمضتُ عيني بقوةٍ، لكن الأصوات ازدادت وضوحًا وشعرتُ بحرارةٍ خلفي وأن هناك شيئًا ما يقف قريبًا جدًّا، فتحتُ عيني بسرعةٍ. وهنا، وجدتُ نفسي في مكانٍ آخر، وجدتُ نفسي أسير وأنا أشعر بدوارٍ غريبٍ، ورؤيتي مشوشة كأنَّ الضباب يحيط بي من كل اتجاهٍ، كل ما يمكنني رؤيته هو ظلام الليل والبيوت المشوهة، لا أشعر بالوقت ولا بالمسافة التي أقطعها، أتحرّك مسلوب الإرادة تمامًا، لا أعرف إلى أين أنا ذاهب، كل ما أعرفه أنني أمرُّ بتجربةٍ روحانيةٍ مختلفة.

وأخيرًا توقفتُ...

تدريجيًا بدأت الغشاوة التي تغطي عيني تزول شيئًا فشيئًا، وبدأتُ أستوعب أين أنا؟

أنا في المقابر!

نظرتُ حولي، فوجدتُ المدافن تملأ المكان، وشواهد القبور تتناثر. تسلل الخوف إلى أعماقي، وتسارعت دقات قلبي بجنون، حاولتُ أن أتحرّك، أن أتراجع، لكن قدمي تجمّدتْ في الأرض وأصبحتْ ثقيلةً جدًا حتى صوتي اختفى.

على مسافةٍ غير بعيدةٍ لمحتُ رجلًا يرتدي جلبابًا رماديًا، مغمورًا بالدماء، كأنّه جزار وقد انتهى من ذبيحته؛ دققتُ النظر في وجهه وعرفتُه على الفور، الدجال "عزام أبو شمعة"، نعم هو، وبجواره كان يقف كلبٌ أسود، عيناه تشعان بوميضٍ مخيفٍ، ويحدّق بي بثبات.

تحرّك "عزام" بضع خطواتٍ وتوقف أمام قبر "ريان"، كنتُ أعرفه جيدًا بعد أن قضيتُ ليلةً داخله وشاهدتُ فيه الأهوال. القبر هنا يبدو كالجديد تمامًا، ببعض التفكير يمكن القول أنني أشاهد أحداثًا قديمة، وهذا يعني أن "عزام" له علاقة كبيرة وربما يكون مسئولًا عمّا حدث لـ"ريان" وعمّا يحدث له الآن!

انتبهتُ على صوت نباح الكلب، بينما أخرج "عزام" من الكيس مجرفةً، واقترب من القبر وفتح الباب ودخل، مضت دقائق ولا يحدث شيءٌ، فقط أنا أراقب والكلب ينبح و"عزام" داخل المقبرة لا أعرف ماذا يفعل، ثم بعد قليلٍ خرج وهو يحمل جثة "ريان" وهي ملفوفةٌ في الكفن والتراب يغطيها، ما زال الكفن يحتفظ بلونه الأبيض وهذا دليل أن الدفن تمّ حديثًا.

وضع "عزام" الجثة على الأرض، ثم انحنى على ركبتيه ومدّ يديه وبلا أدنى تردد مزق الكفن ثم ألقاه نحوي بعنفٍ، ليسقط

عند قدمي مباشرةً.

نظرتُ إلى وجه جثة "ريان"؛ كان يبدو أنه دُفن اليوم، إذ لم تظهر عليه أي علامات تحللٍ سوى بعض الزُّرقة التي بدأت تغزو ملامحه، وكأنّه لا يزال نائمًا،

فتح "عزام" الكيس الذي كان يحمله وأخرج منه مقصًا حادًا، ثم اقترب من الجثة وجثا على ركبتيه بجوارها. مدّ يده، أمسك بفمها، وحاول فتحه، لكنه كان قد بدأ في التصلُّب، حاول مرةً حتى تمكّن من فتحه، مدّ يده داخل فم الجثة وأمسك بلسانها، وأخرجه للخارج، ثم وضعه بين شفرتي المقص، وهو يتمتم ويقول:

- خايخ خايخ.. أرمايخ أرمايخ.. عطايش عطايش.. بطايش بطايش.. برهايش برهايش.. شنهارش.. شنهارش.

أطبق المقص على لسان جثة "ريان" وقطعه!

كنتُ أتوقع أن ينفجر الدم بغزارةٍ، لكنه بالكاد كان شيئًا يُذكر، وبعد أن قطع "عزام" اللسان نهض وهو لا يزال يهمس بنفس العبارات، ثم اتجه نحو الكيس وأخرج منه طبقًا صغيرًا وأمسك اللسان المبتور قرّبه من فمه، وواصل التمتمة:

- دنهش دنهش.. خايخ خايخ.. أرمايخ أرمايخ.. عطايش عطايش.. بطايش بطايش.. برهايش برهايش.. شنهارش.. شنهارش.

وبدأ في تقطيع اللسان إلى قطعٍ صغيرة داخل الطبق، وبعد ذلك أخرج زجاجةً صغيرةً تشبه زجاجات الدواء، فتحها قرّبها من فمه نفخ فيها ثم سكب محتواها فوق الطبق، مزج

محتويات الطبق بيده، دون أن يتوقف عن ترديد تلك الكلمات الغريبة، ثم وضعه أمام الكلب الذي بدأ يلتهم الطعام بنهمٍ شديدٍ وكأنّه لم يأكل منذ أيام.

تحرّك "عزام" وترك الكلب يواصل التهام الطعام أو الخليط القذر الذي صنعه، ثم فتح الكيس مرةً أخرى وأخرج منه بكرة خيطٍ أسود وإبرةً ضخمةً، أشبه بتلك التي يستخدمها الخياطين، أدخل طرف الخيط في الإبرة، ثم سحب منه قطعةً طويلةً، لا تقل عن مترٍ تقريبًا وأمسك بالطرفين السفليين، قرّبهما من فمه وهمس بكلماتٍ غير مفهومة، ثم عقد أول عقدة، وقال:

- خايخ.

ونفخ عليها وبعد مسافة شبرٍ تقريبًا عقد عقدةً أخرى، وقال:

- أرمايخ.

ثم نفخ، وتابع بنفس الطريقة حتى صنع سبع عقدٍ بنفس عدد الأسماء التي كان يناديها. وفي تلك اللحظة، كان الكلب قد أنهى طعامه وجلس بجانب الطبق، وضع "عزام" الإبرة جانبًا، ومدّ يده داخل الكيس ليخرج منه سكينًا، أمسك طبقًا آخر واقترب من الكلب الذي بدا مستسلمًا تمامًا كأنّه يدرك ما سيحدث، وفي غمضة عينٍ قام "عزام" بذبح الكلب دون رحمةٍ أو شفقة.

تحوّل الكلب إلى جثةٍ هامدةٍ والدم ينزف من رقبته إلى الطبق والأرض، وبعد أن هدأت جثة الكلب تمامًا، غرس "عزام" السكين في بطنه، ثم أدخل يده داخل بطن الكلب، وسحب الأمعاء دفعةً واحدة كأنّه جزارٌ متمرّس في عمله.

حرفيًا كانت رأسي تدور وشعرتُ أنني على وشك إرجاع كل ما في بطني بسبب ما أراه، بينما أمسك "عزام" بالأمعاء والطبق المليء بالدم، واقترب من جثة "ريان" وجلس على الأرض، عدّل وضعية الجثة بلطفٍ، وبدأ يلف أمعاء الكلب حولها، وبعد أن انتهى، أمسك بالإبرة وبدأ في خياطة فم الجثة بالخيط الأسود، وهو يتمتم بنفس الكلمات دون انقطاعٍ، ثم قطع الخيط بأسنانه، وأمسك بطبق دم الكلب، وبدأ يصبه على الجثة، وعلى وجهها وكل جسدها. المرعب أن بمجرد أن لامس الدم وجه جثة "ريان"، حتى انسلخ جلدها كأنّما سكب عليها ماء نارٍ، لدرجة أن الدخان تصاعد من الجثة. وبعد أن انتهى "عزام" من كل ذلك أخرج كفنًا جديدًا وقام بلف الجثة ثم حملها على كتفه ودخل إلى القبر!

***

غاب "عزام" مدةً طويلةً داخل القبر، وخلال ذلك سمعتُ أصوات ضجيجٍ غير طبيعية. بعد مدةٍ، خرج وهو يتصبب عرقًا ووجهه شاحب تمامًا، ظل يحاول أن يتنفس بصعوبةٍ وللحظةٍ شعرتُ أنه سوف يموت لكنه استعاد قوته، حمل الكلب المذبوح وألقاه داخل المقبرة ثم أغلق الباب وغادر المكان، وانتهى المشهد عند هذا الحد.

شعرتُ أنّه من المفترض أن أعود مرةً أخرى إلى الواقع، نظرتُ حولي وأنا أنادي:

- "نورا"، أريد أن أعود.

سمعتُ صوتها يأتي من بعيدٍ:

- "شريف"، استيقظ.

- "نورا"، أين أنتِ؟ لماذا لا أخرج من كل ذلك؟

ظهر التوتر على صوتها وهي تقول:

- هناك شيءٌ ما خطأ.. أنا آسفة.

قلتُ في ارتياعٍ:

- ماذا تعنين؟! أنا لا أفهم!

- تماسك يا "شريف".

- لا أستطيع، أحتاج أن أعود فورًا.

وفي نفس اللحظة، رأيتُ باب المقبرة يتحرّك، وبدأ شيءٌ ما يجذبني إليها حتى وجدتُ نفسي واقفًا على حافة القبر!

سمعتُ صوت "نورا" تقول:

- اتبع صوتي يا "شريف".

قلتُ في اضطرابٍ:

- كيف؟

- اسمعني جيدًا.. أنا...

لم أسمع باقي الجملة، صوتها اختفى تمامًا!

بمجرد أن اختفى صوت "نورا"، حتى شعرتُ أنني أصبحتُ سجينَ هذا العالم. حاولتُ أن أتحرّك لكن فوجئتُ بيدٍ تمسك ساقي، نظرتُ بسرعةٍ فوجدتُ جثة "ريان" جالسةً في القبر، تمسك قدمي ووجهها غارقٌ في الدماء، ثم بدأت تصدر زمجرةً مرعبةً، حاولتُ أن أسحب قدمي، لكنها كانت متشبثةً بها بشدةٍ كأنّها تريد الخروج، لا لم تكن تريد الخروج، بل كانت

تريد سحبي إلى الأسفل!

تراجعتُ إلى الوراء لكن فقدتُ توازني وسقطتُ في الحفرة، وفي لحظةٍ وجدتُ نفسي مرميًا على وجهي، وجثة "ريان" أسفل مني هامدةً تمامًا تحدّق في وجهي!

صرختُ.. صرختُ بأعلى ما تسمح به حنجرتي المنهكة، ثم فوجئتُ بشيءٍ يسقط على ظهري، شيءٍ مثل التراب غطى وجهي، وشعرتُ أن نفسي يضيق وأوشكت على الاختناق، حاولتُ تحريك رأسي لإبعاد التراب، لكن ظهرت أذرعٌ قوية من تحت الأرض والتفت حول جسدي ورقبتي وتثبتني على ظهري. وهنا، أُغلق باب المقبرة! أغمضتُ عيني واستسلمتُ للنهاية، كنتُ فقط أتمنى أن تأتي بسرعةٍ.

لكن بعد قليلٍ سمعتُ صوتًا.. صوت ثلاث خبطاتٍ على باب، الصوت كان بعيدًا لكني متأكّدًا أنني سمعتُه، لم أحتج للتأكُّد لأن الصوت تكرر مرةً أخرى!

هل هناك أحدٌ يطرق باب القبر المجاور؟ أم أنني أتخيل؟

- "شريف".. استيقظ.

فجأةً، اهتزت الأرض وراح المكان يدور من حولي بسرعةٍ هائلة ثم انتزعتني دوامةٌ قوية وألقتني في مكانٍ بعيد!

***

سقطتُ في صحراء شاسعة، رأيتُ "نورا" عاريةً تمامًا، تتمرغ على الرمال، تصرخ صرخاتٍ هستيرية وكلبٌ أسود جاثمٌ فوق منها ينشب مخالبه فيها كأنّه يضاجعها!

نهضتُ بسرعةٍ، واندفعتُ نحوهما وأنا أصرخ في غضبٍ:

- ابتعد عنها.

لكن قبل أن أصل إليها أمسكتني يدٌ قوية وشاهدتُ "عزام" عاريًا هو أيضًا، ينظر لي بغضب شيطانٍ وملامح غول، ثم قبض على عنقي وهو يقول بصوتٍ خشن:

- مَن أرسلك إلى هنا؟

وقبل أن أرد، حملني رفعني في الهواء بقوةٍ هائلة كأنّني دُميةٌ مطاطيةٌ لا تملك من أمر نفسها شيئًا وألقاني في الدوامة مرةً أخرى؛ فسمعتُ صوت تحطم زجاجٍ وغصتُ في الظلام!

انشقَّ الظلام عن نورٍ خاطف مثل إضاءة برقٍ، ورأيتُ شموسًا صغيرةً وطائرًا عملاقًا له أجنحةٌ جبارة ويعوي كالذئب!

صرختُ...

ومع صرختي هذه المرة عدتُ إلى الواقع.

وجدتُ نفسي فجأةً فوق الأرض، وشاهدتُ فوقي ظلًا يعكس صورة إنسانٍ قبل أن اكتشف أن "نورا" جاثمة فوق صدري تضغط عليه بكل قوتها كأنّها كانت تحاول إنعاشي!

للحظةٍ، لم أستوعب الأمر، لكن حين أفقتُ من الصدمة، انتزعتُ قميص طلسيمان من فوق جسدي وألقيتُه بعيدًا عني وأنا أصرخ:

- اللعنة!

انهارت "نورا" بجواري قائلةً:

- اعتقدتُ أنك لن تعود.

قلتُ وأنا أمسح العرق من على وجهي:

- تجربة بشعة.. لقد رأيتُكِ وأنتِ...

كدتُ أن أخبرها كيف رأيتُها لكن وجدتُ أن هذا قد يفزعها، فاستدركتُ قائلًا:

- رأيتُكِ وأنتِ تحاولين إنقاذي.

قالت في خفوتٍ:

- آسفة.. لقد فقدتُ السيطرة.

كان وجهها شاحبًا جدًا وهي تقول ذلك!

قلتُ لأطمئنها:

- لا تقلقي، الآن أنا بخير.

بدا الارتياح قليلًا على وجهها ثم سألتني:

- هل توصلتَ إلى شيءٍ؟

- الحقيقة نعم، أنا توصلتُ إلى أهم شيءٍ.

مالت نحوي وقالت:

- وما هو؟

- الشخص الوحيد الذي قد يكون وراء كل ذلك.

سألتني في توتر:

- مَن؟

أخذتُ نفسًا عميقًا قبل أن أقول:

- "عزام".. "عزام أبو شمعة".

ثم اندفعتُ نحو باب الخروج، لكن "نورا" اعترضت طريقي وقالت بانفعالٍ:

- انتظر، إلى أين أنت ذاهب الآن؟

التفتُ إليها وقلتُ في إصرارٍ:

- أنا ذاهبٌ إلى منزل الشيخ "عزام"، الليلة سوف ينتهي كل شيءٍ.

الفصل الرابع عشر
الماضي الملعون

ذهبتُ مباشرةً إلى منزل الشيخ "عزام"، وصلتُ إلى الباب، وحينها تمنيتُ لو كان لديّ أي نوعٍ من الأسلحة لإرغام "عزام" على الكلام، فكّرتُ في العودة لإحضار أي شيءٍ أستخدمه لكنني لم أرغب في إضاعة المزيد من الوقت. ضغطتُ على زر الجرس بينما رحتُ أطرق الباب في الوقت نفسه، حتى سمعتُ وقْع أقدامٍ على الجانب الآخر وفُتح الباب على مصراعيه!

دخلتُ ولم أجد أحدًا أمامي!!

تقدمتُ إلى الأمام، وفجأةً جاء صوت "عزام" من خلفي، استدرتُ لأراه واقفًا وضوء البهو يأتي من خلفه بحيث كان وجهه في الظل، كان يمسك في يده مسدسًا، وحين تقدمتُ خطوةً واحدةً رفعه ووجّهه نحو صدري، فكّرتُ أن أركض نحوه وأصطدم به وأطرحه أرضًا لكن فوهة المسدس الباردة جعلتني أعيد التفكير، أشار لي "عزام" وقال في صرامةٍ:

- تعال معي.

- أريد أن...

قاطعني في حدةٍ:

- أنا أعرف ماذا تريد.

ثم ألقى المسدس بعيدًا وأضاف:

- لا تخف، تعال معي وسوف تفهم كل شيء.

خرجنا وركبتُ معه السيارة. بعد مدةٍ، وصلنا إلى فيلا ضخمة في حيٍّ هادئ لكنها لم تكن تنبض بالحياة كالمنازل الأخرى، كان هناك شيءٌ غريبٌ يحيط بها، سور مرتفع يلف المكان، وحديقة واسعة يُفترض أن تكون مليئةً بالخضرة، لكن كل الأشجار كانت ميتةً، والأوراق ذابلة، والورود جافة كأنّها لم تتذوق الماء منذ سنوات، كان المكان بأكمله يبعث على الكآبة!

قال "عزام" في غموضٍ:

- هنا البداية والنهاية.

ثم سار بي عبر ممرٍ طويلٍ داخل الفيلا، لم تكن هناك أنوارٌ كثيرة، فقط بعض المصابيح الخافتة التي زادت من رهبة المكان. وعندما صعدنا إلى الطابق العلوي عبر درجٍ خشبيٍّ، شعرتُ كأنّني أسير في منزلٍ مهجورا!

توقفنا أمام بابٍ فولاذيٍّ مغلق بإحكامٍ، ثم وضع "عزام" يده على المقبض، ونظر لي نظرةً غريبةً قبل أن يفتح الباب ببطءٍ وقال في خفوتٍ:

- حاولْ أن تتمالك نفسك.

دخلنا إلى الغرفة، وما إن تخطيتُ عتبتها حتى شعرتُ ببرودةٍ غريبة، وكأنّني عبرتُ إلى عالمٍ آخر، عالمٍ يخلو من الحياة. كانت الغرفة معقمةً تمامًا، نظيفةً إلى حدٍّ يذكّرك بغرف العمليات أو وحدات العناية المركزة في المستشفيات، رائحة المطهرات تملأ الهواء، وأصوات الأجهزة الطبية ترن في الأرجاء بصمتٍ مخيف!

وهناك، وسط هذا المكان الخالي من أي روحٍ، وقعت عيناي عليه لأول مرةٍ؛ رجلٌ كبيرٌ في السن ممددًا على سريرٍ طبيٍّ، ومحاليل مغروسة في جسده، وأجهزة مراقبة تحيط به من كل جانب، جهاز تنفس صناعي، جهاز قياس ضربات القلب، وأخرى تراقب علاماته الحيوية!

استدرتُ إلى "عزام" وسألته في حذرٍ:

- مَن هذا؟

أجاب قائلًا:

- الحاج "خليل".. والد "ريان".

في تلك اللحظة، فتح "خليل" عينه، كان وجهه شاحبًا وجلده أبيض كالشمع، رمقني بنظرةٍ صارمةٍ لا تناسب هيئته أو مرضه ثم قال:

- أنا أعرفك.. أنت كنتَ الطبيب المسؤول عن حالة "ريان".

أومأتُ برأسي دون أن أرد، بينما عاد يقول:

- ربما لهذ السبب كان يتواصل معك.

قلتُ في اضطرابٍ:

- الموضوع صدفة.

تدخل "عزام" في الحوار وقال في حزم:

- لا وجود للصدف حين يتعلق الأمر بعالم الجن والشياطين.

ثم عقد حاجبيه وأضاف في غضبٍ:

- ما كان يجب أن تخرج "ريان" من القبر.

سألته في دهشةٍ:

- وكيف عرفتَ؟

أجاب في صرامةٍ:

- أعواني من الجن، وهم أيضًا مَن أخبروني بقدومك.

قلتُ في عصبيةٍ:

- وهل أخبروك بذلك حين جئتُ إليك أول مرةٍ؟

هزَّ "عزام" رأسه بقوةٍ وقال:

- نعم، وحاولتُ على قدر استطاعتي أن أقوم بتحذيرك تارةً وإرهابك تارةً أخرى.

فتحتُ فمي لأنطق بكلمةٍ لكن "خليل" أشار لي قائلًا:

- اجلس وسوف أحكي لك قصتي.

ترددتُ للحظةٍ ثم قلتُ:

- لكنك تبدو مريضًا جدًا.

حاول أن يبتسم وهو يقول:

- منذ أيامٍ قليلة سقطتُ على الأرض فجأةً، قالوا أنها جلطة صغيرة، ضربة في شريان القلب، ضربة لم تكن قاتلةً بما يكفي لإنهائي.

ثم أشار لي مجددًا وأضاف وهو يتنهد:

- صدقني حياتي هي أخر شيءٍ أهتم به الآن. أريد فقط أن أحكي لك قصتي، لكنها ليست قصةً عاديةً؛ إنها لعنةٌ بدأت منذ سنواتٍ، وما زلتُ أدفع ثمنها حتى اليوم.

***

لم املك سوى أن أجلس وأستمع. خيّم علينا صمتٌ ثقيل، قطعه "خليل" بتنهيدةٍ طويلة وكأنّ هناك حملًا ثقيلًا يريد إزاحته عن كاهله، ثم بدا يحكي ويقول:

البداية كانت منذ أعوامٍ طويلة، حين زارني الشيخ "عزام أبو شمعة" لأول مرة في حياتي، وقال لي بأنه استدلّ بعلمه الروحاني وبكتبه القديمة عن وجود كنزٍ ثمين تحت منزلي. مقبرة فرعونية مليئة بالذهب، لكنها ليست مقبرةً عادية، إنها محروسة!

حين سمعتُ منه ذلك، اعتقدتُ أنه كاذب أو محتال، ثم خطرَ لي خاطر سريع فقلتُ لنفسي ولِمَ لا؟ لن أخسر شيئًا. تركتُه يشير لي على المكان في مقابل أن أعده بجزءٍ من الكنز.

وفي الأيام التالية، بدأتُ الحفر أنا وزوجتي "زينب"، وكانت المفاجأة بعد أسبوعٍ ظهرت المقبرة، وحين رأتها زينب لم تتمالك نفسها، وأرادت أن نأخذ كل ما فيها قبل أن يعلم "عزام"، فاعترضتُ وقلتُ لها أن "عزام" حذّرنا من فتحها في غيابه، لكنها أقنعتني وقالت لي ان "عزام" قد قال ذلك ليضمن أن يحصل على نصيبه وأنه لن يحدث لنا شيء.

وبالفعل، دخلنا المقبرة. وجدنا أنفُسنا في دهليزٍ مستطيل جدرانه من الجرانيت، تقدمنا حوالي عشرة أمتارٍ حتى اعترض طريقنا بابٌ حجريٌ، حاولتُ تحريكه أو تحطيمه لكن فشلتُ. المصيبة أن في صباح اليوم التالي، اختفت المقبرة تمامًا وكأنّ الأرض ابتلعتها!

ذهبتُ إلى "عزام" لأخبره بما حدث، قال لي أن "دميان"

حارس المقبرة سحبها إلى باطن الأرض، ولا يوجد حلٌ لإعادتها سوى تقديم قربانٍ بشري، طفل زوهري يُذبح، ويقدّم دمه إلى "دميان"!

وافقت.. وذبحتُ الطفل بيدي. لا أستطيع أن أصف تلك الليلة، كانت ليلةً رهيبةً بكل ما تحمله الكلمة من معنى، لا زلتُ حتى اليوم عاجزًا عن نسيان مشهد الذبح وصراخ الطفل!

فتحنا المقبرة، واقتسمت ما فيها مع الشيخ "عزام" مثلما اتفقنا، ثم قررتُ التوبة؛ هدمتُ المنزل وبنيتُ هذه الفيلا مكانه، ثم استثمرتُ بقية المال في محلٍ صغيرٍ للذهب، ومن المفارقات العجيبة رغم أن المال كان حرامًا إلا أنه كان يتضاعف كل يومٍ، حتى زادت ثروتي بشكلٍ لم أكن أتصوره. وعلى مدى العشرين سنةً التالية نجحتُ في تحويل المحل الصغير إلى أكبر وأشهر محلٍ للمجوهرات في "شط الغاب".

كان كل زبائني من أرقى العائلات وأغنى الأغنياء، لكن بعد أن ازدادت ثروتي وأصبحتُ من الأعيان أدركتُ أن المال ليس كل شيءٍ؛ تضاءلت أمامي بهجة المال والثروة، لم يعد شيءٌ من ذلك يفتنني، كنتُ أحتاج إلى ابنٍ.. نعم أريد ابنًا.

ذهبتُ أنا و"زينب" إلى أشهر الأطباء والمستشفيات لكن لا أمل، اعتقدتُ أن هذا هو عقاب الخالق لكن حدثت المعجزة وحملت زينب، وأنجبت ابني الوحيد "ريان". ثم اكتشفت أنه مصابٌ بمرضٍ نادر في القلب، وعلمتُ وقتها أن هذا هو عقاب الخالق الذي كنتُ أنتظره.

نقلنا "ريان" إلى أفضل مستشفى، لم يكن لديّ أي مشكلةٍ في تدبير المال اللازم لعملية نقل القلب، لكن كانت المشكلة

أن فصيلة دمه كانت نادرةً جدًا، ثم حدث ما حدث في المستشفى وأخرجتُه منها.

مرت الأيام، وكل طبيبٍ كنتُ أستشيره كان يؤكّد لي الحقيقة القاتلة.. "ريان" سيموت وأيامه معدودة.. أسبوع.. أسبوعان.. ثم سيفارق الحياة!

فقدتُ الأمل في العلم والطب. فكّرتُ، وقررتُ أن ألجأ إلى الشيء الذي لا يلجأ إليه إلا الأشخاص اليائسون، لجأت إلى السحر!

ذهبتُ إلى "عزام"، وطلبتُ منه أن يساعدني. قال لي أنه يمتلك طريقةً قادرةً على شفاء "ريان"، لكنها ليست طريقةً عاديةً، فيها يجب أن أخاوي بين "ريان" وبين أحد أنفار الجن، ليس أي جنٍّ بل شيطانٍ من أتباع النار، الجن الماجوسي الكافر "دميان" راصد المقبرة الفرعونية التي أخرجناها، والذي أصبح حرًا طليقًا في "شط الغاب".

بالطبع وافقتُ. كنتُ مستعدًا لفعل أي شيءٍ لإنقاذ "ريان"، وقلتُ لنفسي أنها مجرد محاولة، ولن أخسر شيئًا. لكن لو كنتُ أعلم حينها أن ما سوف أفعله سوف يكون بداية أكبر خطأ ارتكبتُه في حياتي لما وافقتُ أبدًا.

في اليوم التالي، ذهبتُ أنا و"زينب" و"ريان" إلى منزل "عزام". وداخل أحد الغرف بدانا الطقوس؛ كانت الغرفة خاليةً تمامًا، بلا أثاث أو أي أثرٍ للحياة، وفي وسطها، وعلى الأرض، كانت هناك نجمة خماسية كبيرة مرسومة بالدم أو بشيءٍ يشبهه. وعند كل طرفٍ من أطراف النجمة كانت هناك نقوشٌ وطلاسم سحر.

وضعتْ "ريان" فوق النجمة، بينما أخرج "عزام" قطعةَ قماشٍ مليئةً بنقوشٍ حمراء داكنة، بدا لي أنها مكتوبةٌ بالدم ثم رفعها أمام "ريان"، وقرّبها من وجهه وأشعلها. وما إن التهمت النيران القماش حتى تصاعد منها دخانٌ كثيف، وانتشر في الغرفة كأنه كيانٌ له روح، وحين لامس الدخان وجه "ريان" بدأ جسده يرتعش بعنفٍ وينتفض كأنّ تيارًا كهربائيًا أصابه.

"عزام" أخرج مخطوطة قديمة، وبدأ يتلو منها طلاسم ملعونةً بصوتٍ منخفض. وفجأةً، انفجرت صرخةٌ مروعةٌ رجت الجدران، وانتشر البرد والظلام في الأرجاء كأنّنا انتقلنا إلى عالمٍ خالٍ من الضوء والدفء.

نظرتُ أمامي ورأيتُ ما لا يمكن لعقلٍ بشريٍّ أن يستوعبه، رأيتُ أحد الجدران يتصدع، وانفتحت فيه فجوةٌ واسعة، ومن داخلها بدأ يتسرب على الأرض سائلٌ أسود كثيف، يشبه الدم لكنه أكثر لزوجةً، وأكثر سوادًا من الليل نفسه.

التفتُ إلى "زينب" فوجدتُها متجمّدةً في مكانها وعيناها زائغتان، ناديتُها مرارًا لكن لا رد، ثم سمعتُ "عزام" يقول:

- هذا هو وقت تقديم القربان.

ورفع رأسه ونظر إلى الأعلى كأنّه يرى شيئًا خفيًا لا أستطيع رؤيته، وأضاف بصوتٍ مرتفعٍ:

- روح مقابل روح.

ومن هنا بدأت اللعنة.

حاولتُ جذب "زينب" من مكانها لكنها التصقت في الأرض،

وفي نفس الوقت انطلقت أصوات خبطٍ عنيفة من الجدران، كأنّ هناك كائناتٍ تحاول الخروج منها، ثم جاء صوتٌ غريبٌ، لم أسمع مثله من قبل، صوتٌ لم يكن صادرًا من مخلوقٍ، بل من داخل الجدران ذاتها، من الأرض التي نقف عليها، من الهواء الذي يحيط بنا.

بعد ذلك، تحرّكت "زينب" وسارت كالمسحورة بخطواتٍ ثابتة، اتجهت نحو الفجوة السوداء التي انفتحت في الجدار وهي تردد كلمةً واحدةً بصوتٍ مبحوح:

- "دميان" حضر.. "دميان" حضر.

ثم وقفت أمام الفجوة، والتي بدأت تتسع أكثر فأكثر، وحدّقت فيها كمَن تنظر إلى قدرها المحتوم، وقالت بنفس الصوت:

- روح مقابل روح.

نظرتُ إلى "ريان" فوجدتُه لا يزال ينتفض بعنفٍ، كأنّه يتعرّض لصعقاتٍ كهربائية غير مرئية، العرق يتصبب من جبينه وعضلاته تتشنج بلا توقف، ثم ظهرت كياناتٍ سوداء كثيفة راحت تحيط به كجدارٍ من العتمة، تتسلل إلى جسده ثم تخرج مجددًا وكأنّها تختبره، تبحث عن منفذٍ أوسع إلى روحه، ومع كل مرةٍ كانت هذه الكيانات تتغلغل داخله وتنسحب، كان جسده يرتعش بصورةٍ أعنف، كما لو أن روحه تحترق من الداخل.

فجأةً، فتح "ريان" عينيه، لكن عينيه لم تكن آدميةً، لم يعد هناك بياضٌ في مقلتيه، بل تحوّلت إلى سوادٍ مطلق، وبدأت تخرج من فمه وأنفه رغوة بيضاء تتساقط بغزارة، تتدفق

كأنّها إفرازٌ مسموم من جسدٍ لم يعد يحتمل ما يحدث له.

ثم حدث شيءٌ لا يمكن أن يُصدّق.

ارتفع جسد "ريان" ببطءٍ عن الأرض، لم يكن هناك مَن يمسك به، لم يكن هناك ما يدعمه، ومع ذلك بدأ يطفو في الهواء، ويرتفع تدريجيًا وسط الغرفة، ويدور حول نفسه في دوائر، بنفس دقة عقرب الساعة حين يدور داخل ميناء زجاجيّ مغلق.

وفجأةً، فتح "ريان" فمه إلى أقصى حدٍّ، حتى برزت عروق رقبته كلها للخارج، وانتفخت كأنّها ستنفجر، ثم خرج من داخله صوتٌ لم يكن صوتًا بشريًا لكن خليطًا مرعبًا من حشرجة، صراخ، نحيب، وعويل كأنّه انعكاسٌ لمعاناة آلاف الأرواح المحبوسة في أعماق الجحيم!

رأيتُ "زينب" تتحرّك بخطواتٍ ثقيلة، بلا إرادةٍ كأنها منقادةٌ من قوةٍ غير مرئية نحو الفجوة السوداء تريد الدخول. صرختُ فيها وحاولتُ منعها بكل ما أوتيتُ من قوةٍ، لكنها لم تستجب وكأنّها أصبحت قشرةً فارغةً، مجرد جسد يسير نحو مصيره المحتوم!

اقتربت "زينب" من الفجوة أكثر وأكثر، حتى غاص نصف جسدها داخل الجدار. لم تخترقه كما يخترق شخصٌ بابًا مثلًا، لكنها غاصت داخله كأنّ الجدار كتلةٌ من الطين أو الإسفنج، أو كأنّ الحائط نفسه كان كائنًا حيًا يبتلعها.

لكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد.

من داخل الجدار، بدأت ملامح شيءٍ آخر تظهر، شيءٍ لم

يكن من المفترض أن يوجد في عالمنا، وجهٌ أسود خرج من العتمة، وجهٌ بشعٌ، ذو ملامح حيوانية غامضة، مغطى بالشعر بالكامل، تتدلى منه قرونٌ طويلة ملتوية شبيهة بقرون الماعز، لكنها أكثر ضخامةً ووحشيةً. ذلك الوجه لم يكن جامدًا بل راح يتحرّك، يتنفس، يتقدم ببطءٍ خارج الجدار كمَن كان ينتظر هذه اللحظة منذ قرونٍ. أمّا "زينب" فظلت تتشنج، جسدها ينتفض بعنفٍ، ثم فجأةً، وكأنّ الجدار لم يعد بحاجةٍ إليها، قذف جسدها من الداخل إلى الخارج فارتطمت بالأرض بقوةٍ وعيناها متسعتان برعبٍ، وجسدها ممزقٌ بالكامل، وكأنّ كائنًا جبارًا مزّقها بأنيابه، لكن الكابوس لم ينته بعد.

بدأ جسد "زينب" يذوب.. يتفتت ببطءٍ كأن النار تلتهمه من الداخل، ثم تحوّلت بالكامل إلى رمادٍ أسود محترق.

وفي تلك اللحظة، فهمتُ الحقيقة المرعبة.. "زينب" كانت هي القربان! ضحت بروحها من أجل أن يعيش "ريان".

وقفتُ في مكاني، أحدّق في المشهد وأنا عاجزٌ عن استيعاب ما يحدث، نظرتُ إلى النجمة التي في منتصف الغرفة، فرأيتُ "ريان" بداخلها، جسده مطوي على نفسه، ويضم قدميه إلى صدره، كجنينٍ في رحم أمه، وأسمع بعدها صوت "عزام" وهو يقول:

- انتهت الطقوس بنجاح.

كنتُ في حالةٍ من الصدمة والرعب، وحين استوعبتُ الموقف كدتُ أن أقتل "عزام"، لكنه أخبرني أن كل شيءٍ تم بالاتفاق مع "زينب" وأنها وافقت على أن تقدم نفسها قربانًا، كانت تعرف منذ البداية أنها ستموت ورغم ذلك ضحت

بنفسها!

تم شفاء "ريان"، واعتقدتُ أن القصة انتهت.

بمرور الأيام، لاحظتُ أن "ريان" يتصرف تصرفاتٍ شيطانية، وحين عدتُ إلى "عزام" اكتشفنا أن "دميان" خان العهد؛ كان "ريان" طفلًا زوهريًا، ولهذا لم يرحل الجن وسكن جسده ليستفيد من دمائه، فامتزج به وأصبح الاثنان كيانًا واحدًا.. "ريان" هو الجسد و"دميان" الروح، لا أحد منهما يستطيع العيش دون الآخر، إن مات "دميان" يموت "ريان".

حاولنا بكل الطرق إخراج "دميان" منه، لكن بلا جدوى. وفي النهاية، مات "ريان"، انتهت اللعبة ولم يعد يبقى لي شيءٌ.

بدأتُ أبحث عن الانتقام؛ طلبتُ من "عزام" أن يدلني على أبشع طريقةٍ للعقاب.

وبالفعل، عثر "عزام" على طريقةٍ ملعونة في كتاب شمس المعارف الكبرى، وحين أخبرني عنها وافقتُ على الفور.

في اليوم التالي، ذهب "عزام" إلى مقبرة "ريان" وقام بممارسة الطقوس وسجن "دميان" داخل جسد "ريان"، كلاهما صار يسكن نفس المقبرة. صحيحٌ أن "ريان" مات، لكني انتقمتُ من الشيطان، وحين يتحوّل جسد "ريان" إلى رمادٍ سوف يموت أيضًا "دميان"، كان ذلك أبشع عقابٍ له، كان هذا هو انتقامي.

الفصل الخامس عشر

دميان

أغمض "خليل" عينيه في ألمٍ بعد انتهى من سرد قصته!

- ماذا سيحدث الآن؟

قلتُ ذلك وأنا أراجع كل كلمةٍ قالها داخل عقلي، بينما ترددت في ذهني صورة الرؤيا التي رأيتُ فيها "عزام" في المقابر وهو ينبش جثة "ريان" حين ارتديتُ قميص طلسيمان. لا شكّ أنني شهدتُ تلك الطقوس بعيني دون أن أدرك حقيقتها، أعتقد الآن أنني أصبحتُ أفهم كل شيءٍ. التفتُ إلى "عزام" وقلتُ له في انفعالٍ:

- "دميان" خدعني، أراد أن أكون أنا مَن يحرره مِن اللعنة.

أومأ "عزام" برأسه قائلًا في حدةٍ:

- "ريان" الآن ليس سوى مجرد جثة يتحرّك بها الجن. ربما في البداية حاول "ريان" تحذيرك؛ لأنه لم يكن يريد إيذاءك، لكنه الآن لم يعد له أي سيطرة، الجن الماجوسي يتحكّم فيه بالكامل، وهذا يجعله خطرًا لا يمكن التنبؤ به.

ابتلعت ريقي بصعوبةٍ وأنا أقول في حيرةٍ:

- إذن، ماذا علينا أن نفعل؟

نظر لي "عزام" طويلًا قبل أن يقول بحزمٍ:

- لا خيار أمامنا سوى دفنه من جديد؛ علينا أن نحاول أن نستدرجه إلى هنا وسجنه مرةً أخرى؛ ولهذا نحن في حاجةٍ إليك.

قلتُ في عصبيةٍ:

- وما المطلوب مني؟

أخرج "عزام" زجاجةً صغيرةً تحتوي على سائل أحمر داكنٍ، ثم قال في صرامةٍ:

- بضع قطراتٍ من هذا في طعام "ريان" وسوف تدخله هو و"دميان" في غيبوبةٍ، ثم ستأتي به إلى هنا لننهي الطقوس.

نظرتُ إليه بقلقٍ وسألته:

- ماذا سيحدث لـ"ريان" إذا خرج "دميان" منه؟

أطرق "عزام" رأسه، ثم أجاب بعد لحظة صمتٍ:

- هناك احتمالٌ أن يعيش أو...

قاطعته بحدةٍ:

- أو أن يموت، أليس كذلك؟ هذا يعني أنك تحكم عليه بالموت.

رفع "عزام" عينيه نحوي وقال في انفعالٍ:

- اسمعني جيدًا يا "شريف"، الكائن الذي يعيش معك ليس "ريان" إنه شيءٌ آخر، أحتاج منك أن تحضره إلى هنا و...

وفجأةً، قطع حديثه، رأيتُ عينيه تتسعان وهو ينظر خلفي، التفتُ بسرعةٍ فشعرتُ برعشةٍ تسري في جسدي حين رأيتُ "ريان" واقفًا عند باب الغرفة وهو يقول في غضبٍ:

- لا داعي لإحضاري.. لقد جئتُ لكم بكامل إرادتي.

ومع نهاية كلمته تحوّلت عيناه إلى اللون الأسود الداكن.

***

كان الموقف مرعبًا جدًا، فوجئت بـ"ريان" يخلع ملابسه بسرعةٍ، ثم يقف في وسط الحجرة عاريًا كما ولدته أمه، وبدا جسده جافًا ناشفًا، ليس فيه جزءٌ واحدٌ من اللحم!

تحرّك "عزام" بسرعةٍ مذهلةٍ على نحوٍ غير متوقع، وسحب من جيبه سلسلةً فضيةً طويلةً، وألقاها حول عنق "ريان"، وما إن لامست السلسلة بشرته حتى اهتز جسده بعنفٍ شديدٍ، وكأنّ تيارًا كهربائيًا صاعقًا اخترقه، ثم بدأت رأسه تصغر حتى استحالت إلى جمجمةٍ كرويةٍ صغيرة، فكها الأسفل يلتوي إلى أعلى، والأعلى يلتوي إلى أسفل، وملامحها كلها تكاد تختفي داخل الفم!

صاح "عزام" بصوتٍ مرتفع:

- الآن.. الآن.. الآن.

في تلك اللحظة، هوى "ريان" على الأرض دون أدنى حركةٍ كأنّه جثةٌ بلا روح!

التفتَ إلى "عزام" وسألتُه في ذهولٍ:

- هل مات؟

قال "عزام" وهو يتحرّك في عصبيةٍ:

- ليس بعد، لقد كبّلتُ ولجمتُ الشيطان الذي يسكنه، لكنه لن يبقى محبوسًا للأبد؛ علينا أن نتحرّك بسرعةٍ قبل أن يفلت.

ثم التفت لي وصاح بحدةٍ:

- أحضر لي وعاءً مملوءًا بالماء بسرعةٍ.

ركضتُ إلى المطبخ، التقطتُ أقرب وعاءٍ وملأتُه بالماء دون

تفكيرٍ.

عدتُ مسرعًا لكن عندما دخلتُ فوجئتُ بمشهدٍ غريب، كان "عزام" قد وضع مرآةً كبيرةً أمام جسد "ريان" الساكن على الأرض.

توقفتُ لوهلةٍ، ونظرتُ إليه بتوجس؛ لماذا المرآة؟ وما الذي يحاول فعله؟

لكن "عزام" لم يمنحني وقتًا للتساؤل؛ انتزع الوعاء من يدي، ثم ارتشف منه قطراتٍ قليلة وراح يتمتم بكلماتٍ مبهمة بلغةٍ لم أفهمها. ومع كل تمتمةٍ، بدأ الماء يضطرب كأنّ درجة حرارته تزداد حتى وصل إلى درجة الغليان، وتحوّل لونه من الصافي إلى الرمادي ثم ازداد قتامةً حتى أصبح أسود كالحبر!

بعد قليلٍ، رفع "عزام" الوعاء وألقى الماء الأسود دفعةً واحدةً على جسد "ريان" الساكن وهو يقول:

- أقسم عليك بحق ملوك الشياطين.. بحق السيد برقان.. والملك الأحمر.. والملك مسيطرون.. وبحق عائنة.. بحق خدام الملوك الأربعة.. مردة الشياطين.. عمار المكان.. وعبدة النار.. أقسم عليك.. أقسم عليك.. أقسم عليك.

تراجعتُ إلى الخلف متوقعًا أن يحدث شيءٌ، لكن لا شيء تغيّر، ظلّ "ريان" مرميًا على الأرض بلا حراكٍ كأنّه جثةٌ فقدت الحياة منذ زمن!

أشار لي "عزام" وقال في انفعالٍ:

- انظر.

ونظرتُ حيث أشار؛ إلى المرآة.

رأيتُ في المرآة ظهر "ريان" ينشقُّ ببطءٍ كأنّ يدًا خفيةً تمزق جلده من الداخل، كما لو كنتَ تفتح كتابًا سميكًا عن آخره، ومن هذا الشق خرج نصف جسد "دميان" العلوي، خرج لأول مرةٍ بشكله الحقيقي.

كان مخلوقًا لم أرَ مثله في حياتي، لا في أسوأ الكوابيس، ولا في أكثر الحكايات رعبًا؛ رأسه ضخمٌ بشكلٍ غير طبيعيٍّ، يحمل قرونًا طويلة معوجة تشبه قرون التيس، وعيناه مشقوقتان بالطول تتوهجان بلونٍ دمويٍّ مرعب!

كل هذا كان يحدث داخل المرآة فقط، بينما في الواقع كان جسد "ريان" سليمًا تمامًا وساكنًا على الأرض بلا حراكٍ!

صرختُ في رعبٍ:

- يا إلهي!

التفت لي "دميان" وقال بصوتٍ خشنٍ:

- اقتلْ "عزام" وسوف أدعك تعيش.

صرخ "عزام":

- "شريف"، لا تستمع إليه، "دميان" يحاول خداعك.

صاح "دميان" في غضبٍ:

- أنا مخلوقٌ عاش آلاف السنين، هل تعرف حجم القوة التي يمكن أن يكتسبها مخلوقٌ مثلي؟ أنا لا أحتاج إلى أن أخدع أحدًا، لا أحتاج إلى مساعدة أحدٍ، أنا "دميان".

وبمجرد أن قال ذلك، اهتزت السلسلة الفضية التي كانت تطوق عنق "ريان" ثم بدأت تتفكك، لم تنكسر بل تحللت

بالكامل وتحوّلت إلى رمادٍ أسود تبعثر في الهواء!

نظرتُ مرةً أخرى إلى المرآة، رأيتُ فيها "دميان" وقد أخرج بقية جسده من ظهر "ريان"، جسده كان هائلًا ومرعبًا، وأقدامه ذات حوافر سوداء مشققة!

وببطءٍ شديدٍ خرج "دميان" من المرآة ونظر إلينا واحدًا تلو الآخر، وحين التقت عيني بعينيه شعرتُ بحرارةٍ جهنميةٍ تضرب جسدي كأنّ لهيبًا غير مرئيٍ يشتعل داخل عروقي، لدرجة اعتقدتُ أنني سأموت، لكن بمجرد أن صرف "دميان" بصره عني انخفضت درجة حرارتي على الفورا

التفتُ إلى "عزام" وصرختُ فيه:

- افعلْ شيئًا.

لكن "عزام" قال في ذعرٍ:

- أنا فعلتُ كل ما في استطاعتي.

ثم أطلق صرخة رعبٍ مدويةً وظلّ يدور حول نفسه بجنونٍ من الهلع وهو يردد:

- لا.. لا أمل.. سنموت جميعًا.

صرختُ فيه مجددًا وصفعتُه على وجهه:

- تمالك نفسك.

تجمّد في مكانه، واتسعت عيناه كأنّه تذكّر شيئًا ثم هتف:

- هناك شيءٌ أخير.

وقبل أن أفهم ما يقصده، وجدتُه ينطلق نحو الباب، حاولتُ اللحاق به لكنه كان أسرع وخرج وأغلق الباب علينا بإحكامٍ!

نظرتُ حولي في ذعرٍ الموقف يفوق الوصف؛ "دميان" أمامي، صراخ رهيب يملأ المكان، الأرض تهتزُّ تحت قدمي، لا يوجد مخرج و"عزام" أغلق الباب من الخارج، ركضتُ نحو "خليل" وقلتُ في انفعالٍ:

- "عزام" هرب!

فوجئتُ بـ"خليل" يبتسم ويقول:

- انتهى الأمر يا "شريف"، كنتُ أتوقع هذا، لقد تعبتُ من الجن والسحر والطلاسم، حان وقت الخلاص، الفيلا كلها مفخخة، وخلال دقيقة واحدة ستنفجر وتتحوّل إلى رماد.

وهنا، ولأول مرةٍ لاحظتُ وجود عشرات العبوات الصغيرة والبراميل المتفجرة المتناثرة في أرجاء المكان، لم أكن قد انتبهتُ إليها من قبل، لكن الآن كل شيءٍ أصبح واضحًا جدًّا!

عاد "خليل" يقول بصوتٍ متماسك رغم الكارثة:

- النار وحدها يمكنها القضاء على "دميان" الملعون.

صرختُ في وجهه:

- وستقضي علينا أيضًا، "عزام" هرب وأغلق الباب.

لمعت عينا "خليل" وهو يقول:

- "عزام" فعل هذا لأن الباب والجدران منقوشٌ عليهم تعويذةٌ تمنع خروج "دميان" من هنا؛ أخبرتُك منذ قليلٍ كنتُ أتوقع ذلك، كل شيءٍ محسوبٌ بدقة.

ثم رفع يده ليكشف عن جهاز تحكمٍ صغير شبيه بالريموت كنترول، وضغط على زرٍ فيه وهو يقول بكل هدوءٍ وبراءة:

- سامحني يا "شريف"، لكنك ستموت معي.

***

اندفعتُ نحو الباب وأنا أصرخ، حاولتُ بكل ما أوتيتُ من قوةٍ أن أفتحه، أن أحطمه.. لا فائدة، صرختُ وضربتُ رأسي في الباب مرة.. اثنان.. ثلاثة!

سمعتُ "خليل" يقول بصوتٍ مرتفعٍ:

- لا داعي للمقاومة يا "شريف"، النهاية درامية رائعة، نحتاج فقط إلى مُخرج بارع يجيد استخدام المؤثرات السينمائية، نار ومخلوق شيطاني وانفجار هائل؛ ستنفجر السينما من التصفيق.. أنا واثقٌ من ذلك.

صرختُ فيه بغضبٍ:

- أنت مجنونٌ.

ضحك في هستيريا:

- المجنون هو أنت؛ لأنك اعتقدتَ أن الأموات يعودون، كان ينبغي أن تسمع النصيحة، كان ينبغي أن تتوقف.

شعرتُ أن ماءً باردًا انسكب على وجهي حين قال ذلك، نعم أنا مجنون!

ألقيتُ نفسي على الأرض، وأسندتُ ظهري على الباب في انتظار مصيري المحتوم وقلتُ في استسلامٍ:

- أنت محقٌ.. لا فائدة من النضال.

رأيتُ "دميان" يقترب من "خليل" بخطواتٍ بطيئة وعيناه تتوهجان بشيءٍ يفوق الرعب ذاته، لم يصرخ "خليل" ولم

يرتجف، قال لـ"دميان" وهو يضحك:

- تبًا لك أيها الوغد.. أنت قبيحٌ جدًا.

صرخ "دميان" في غضبٍ، انحنى على "خليل" وغرس يده في صدره ثم انتزع قلبه ورفعه إلى فمه، وبدأ يمضغه بقسوةٍ لا يمكن تصورها!

أغمضتُ عيني وأنا أقول:

- وداعًا أيها الأحمق العجوز.

وحين انتهى "دميان" من تمزيق "خليل"، التفت نحوي وأشار لي بأظافره، إنه دوري بالتأكيد ولا يوجد مهرب، إمّا أن يقتلني هو أو أموت في الانفجار!

نعم، النهاية رائعة كما قال "خليل"؛ سوف نلتقي جميعًا في الجحيم لا مكان لنا داخل الجنة، كل الأصدقاء في الجحيم.

وفجأةً، سمعتُ صوت القفل يدور من الخارج، التفتُ بسرعةٍ فرأيتُ الباب يتحرّك، ثم ظهرت "نورا" وهي تنادي في لهفةٍ:

- "شريف"؟!

لكن عيناها اتسعت من الرعب حين رأت "دميان" وصرخت:

- يا إلهي!

وكادت أن تهرب وتغلق الباب مرةً أخرى، فاندفعت نحوها وأنا أهتف:

- لا.. توقفي.

وبالفعل توقفت وهي تقول:

- "شريف".. ما الذي يحدث هنا؟!

قلت وأنا أمسك يدها بقوةٍ:

- سأشرح لكِ لاحقًا.

ثم سحبتُها إلى الخارج وأنا اصرخ فيها:

- فقط اركضي.

وأغلقتُ الباب خلفنا وركضنا كأنّنا في سباقٍ مع الموت نفسه.

نجحنا في الخروج من الفيلا في اللحظة الأخيرة، وبمجرد أن ابتعدنا دوى الانفجار.

انفجارٌ رهيبٌ جدًّا.

تحوّلت الفيلا إلى كتلةٍ متفجرةٍ من اللهب، وارتفعت ألسنة النار إلى السماء، الجدران انهارت، والسقف سقط متهشمًا، حتى لم يبقَ من المكان سوى كتلة نارٍ هائلة راحت تلتهم كل شيءٍ. نعم، كل شيء.

خاتمة

بعد أسبوعٍ

- هل فكّرتَ في مصير "دميان"؟

قالت "نورا" ذلك وهي تمدُّ لي فنجانًا من القهوة، فأخذتُه منها وأنا أقول:

- الحقيقة، نعم فكّرتُ كثيرًا، لكن لا أعرف؛ ربما يكون نجا، ربما يكون تمّ تدميره، كل الاحتمالات ممكنة ولا شيء مؤكّد.

- لديّ هاجس أنه ما زال موجودًا.

- وأنا أيضًا.

قالت وهي تتحرّك قليلا إلى الأمام في كرسيها:

- أتعلم؟ لندع الأمر يمضي؛ هذا أفضل للجميع.

- أنتِ محقة.

ثم نظرتُ في عينيها:

- سوف أفتقدكِ.

قالت بصوتٍ هادئ:

- أنت تعرف مكاني، حين تتوق إلى فنجان قهوة يكفي أن تأتي وتطرق الباب.

أدرت الفنجان بين يدي وأنا أقول:

- ربما أغيب كثيرًا هذه المرة.

ابتسمت:

- سأكون في انتظارك.. لا تقلق.

ترددتُ ثم قلتُ:

- أتعلمين؟ ربما في وقتٍ آخر.. زمنٍ آخر.. كان يمكن أنا وأنتِ...

قاطعتني بسرعةٍ، كما لو أنها تخشى أن أكمل الجملة:

- نعم كان يمكن، لكنه يظل مجرد احتمال.

انحنيتُ إليها وقلتُ:

- "نورا".

وقبل أن تفهم ماذا أريد، قبّلتُها فجأةً، فأنزلتْ رأسها إلى صدري وقالت:

- هذا لطيف.

ثم اعتدلت بحيث أصبح وجهها أمام وجهي تمامًا وأضافت:

- هناك شيءٌ أنت لا تعرفه بشأني، وهو أنني كنتُ مرتبطةً و...

قاطعتُها:

- الماضي ليس من شأني.

لكنها ابتعدت عني قليلًا، ونظرت لي بطريقةٍ مختلفة وقالت:

- وداعًا يا "شريف".

حاولتُ أن أبتسم:

- أنا أكره لحظات الوداع.

- وأنا أيضًا.

- لتكن إلى اللقاء إذن.

لمحتُ دمعةً صغيرةً رقيقة كرأس الدبوس تفرُّ من عينها قبل أن تقول:

- كما تريد.

تركتُها وخرجتُ من المنزل. أغلقتُ الباب خلفي، وبمجرد أن ابتعدتُ بضع خطواتٍ حتى رنَّ هاتفي، كان "حسين" الذي خرج من المستشفى منذ يومان.

- "شريف"، أين أنت؟

- في المنزل القديم، كنتُ في وداع "نورا".

هتف "حسين" في استغرابٍ:

- وداع "نورا"؟!

توقفتُ مكاني، وسألتُه بقلقٍ:

- نعم، ماذا هناك؟

ثم ضحكتُ واستطردتُ قائلًا:

- تذكَّرتُ الآن أنني لم أخبرك عنها؛ يبدو أن صديقك قام بتأجير المنزل لي ولها في نفس الوقت و...

قاطعني "حسين" في توتر:

- "شريف"، لا أحد يسكن في هذا المنزل منذ عام تقريبا.

ضحكتُ مجددًا، رغم الشعور الغريب الذي بدأ ينهشني من الداخل وقلتُ:

- "حسين"، لا تمزح معي.. "نورا" تعيش هناك.

قال "حسين" في عصبيةٍ:

- أقسمُ لك أنه لا أحد يسكن في المنزل غيرك.

ثم صمت قليلًا، قبل أن يضيف بصوتٍ مرتجفٍ:

- منذ عامٍ، كانت هناك فتاة تسكن هذا المنزل.. فتاة اسمها "نورا".. لكنها ماتت.

وقفتُ بلا حراكٍ.

الهاتف في يدي والكلمات تترنح في رأسي دون أن أستطيع استيعابها.

قلتُ بصعوبةٍ:

- ماتت؟!

هتف "حسين" بانفعالٍ:

- نعم، ماتت في ظروفٍ غامضة، وجدوا جثتها في غرفتها، كانت وحدها والجيران سمعوا صرختها لكن عندما وصلوا كان الأوان قد فات.

استدرتُ ببطءٍ، نظرتُ إلى باب المنزل الموارب، شعرتُ أن الهواء صار أكثر برودةً من ذي قبل.

العالم يدور من حولي، قلبي يخفق بعنفٍ، وعقلي يحاول استيعاب الصدمة الأخيرة.. "نورا" كانت هي أيضًا ميتة.

تمّت

محمود الجعيدي

أعمالٌ أدبيةٌ سابقةٌ
للكاتب محمود الجعيدي

- صائد الرؤوس - مجموعة قصصية.
- المرعبون في عمارة رشدي – رواية.
- نداء الموتى – رواية.
- هيراطيقية – رواية.
- الخبيث – رواية.
- غبار الأموات – رواية.
- تل العبيد – رواية.
- قبر الغريب – رواية.
- قضية يوم السبت – رواية.
- أرض شيخ الجن – رواية.
- رفقاء الظلام – رواية.
- عهود الهلاك – رواية.